

تَوْحِيدُ الْمُفَضَّلِ

إملاء

الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام

على الفضل بن عمر الجاني

قدم له وعلق عليه

كاظمي المظفر

تَوْحِيدُ الْمُفَضَّلِ

إِمْلَاء

الإمام أبي عبد الله الصادق (ع)
على المفضل بن عمر الجعفي

قدم له وعلق عليه

كاظم باقر المظفر

طبع على نفقة

مهد كاظم الشيخ صادق الكتبي

صاحب المكتبة والمطبعة الحيدرية في النجف

(الطبعة الثانية)

منقحة ومضبوطة

شبكة كتب الشيعة

منشورات المطبعة الحيدرية في النجف

١٣٧٤ هـ ١٩٥٥ م



shiabooks.net

رابط يديل < mktba.net

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المفضل بيه عمر

سيرته وتوحيده

١ - توطئة :

في نهاية عام ١٩٤٩ تقدم الأخ الفاضل محمد كاظم الكنتي إلى طبع كتاب التوحيد الذي أملاه الامام أبو عبد الله الصادق (عليه السلام) على تلميذه النجيب : المفضل بن عمر الجعفي ، وما ان نزل إلى الأسواق حتى تداولته الأيدي ، ونفذت نسخة الكثيرة في بضعة شهور ، وظل الأخ الكنتي يحدث نفسه بطبع الكتاب مرة ثانية ، ولكنه أحب هذه المرة أن يخرجها في حلة جديدة ، ويضيف اليه شرح ما غمض من تعابيره وأشكل من ألفاظه ومعانيه ، ثم وضع مقدمة له تبين أغراض الكتاب ومقاصده العالية ، وترجمة المفضل وعلاقته بسيد الامام الصادق ، إلى غير ذلك من الموضوعات التي تمس الكتاب وتحوم حوله .

وقد تحدث إلي الأخ الكنتي بهذا الأمر ، وكلفني بأن أنولى ذلك بنفسي ، فلم أجد مناصاً من ذلك ، وقمت بالمهمة على عجلة وسرعة ، ذلك لانشغال البال ، وكثرة الأعمال ، وانصراف الذهن إلى مهام أخرى ، واني لأرجو ان أفرغ لدمرة ثانية ، فأزيد في شرحه وأوليه العناية التي هو أهلها .

وحسبي الآن هذه التعاليق البسيطة التي ارجو أن تكون حافزاً لغيري من الأفاضل على درس كتاب التوحيد والقيام بشرحه شرحاً مستفيضاً .

ولد ابو محمد وقيل ابو عبد الله المفضل بن عمر الجعفي الكوفي ، فيما بين أواخر القرن الأول وأوائل القرن الثاني الهجري في مدينة الكوفة الآهلة - يومئذ - برواد العلم ، واقطاب الفكر الاسلامي ونستنتج من بعض الروايات ان المفضل عاصر الامام الباقر واحتك به ، فأدرك الدولة الأموية . . ومن ثم اتصل بالامام الصادق ، وبعده بالامام موسى الكاظم ، وقد أخذ عنها الحديث والرواية ، وكان أثيراً لديها ، قريباً اليها ، متوكلاً عليها ، متولياً لها في قبض الاموال ، ونفويضه في ذلك تفويضاً يدل على ثقة الجميع به واعتمادهم عليه ، وقد قال له الصادق مرة : (اذا رأيت بين اثنين من شيعتنا منازعة ، فافتدها من مالي) (١) .

وعاصر بعد ذلك الامام الرضا ، وفي أيامه توفي ، وكان ذلك في أخريات المائة الثانية من الهجرة ، عن عمر ناهز الثمانين سنة . ولما بلغ موته الرضا قال فيه هذه الكلمة الخالدة : (كان الوالد بعد الوالد . . اما انه قد استراح) (٢) ، وفي خبر آخر ان الرضا خاطب أحد أصحابه بقوله (أما ان المفضل كان انسي ومستراح) (٣) .

ومن المؤكد ان المفضل توفي ، وهو لم يكن بطوس ولا ببغداد ،

(١) مستدرك الوسائل للعلامة النوري - ج ٣ ص ٥٦٢ ط دار الخلافة بطهران .

(٢) معرفة أحوال الرجال للكشي - ص ٢١١ ط المصطفوية ببغبي ، ورجال أبي علي ص ٣٠٨ ط العجم .

(٣) العيون للشيخ الصدوق في باب النصوح على امامة الرضا ، وتنقيح المقال للمامقاني ج ٣ ص ٢٣٨ ط المرتضوية بالنجف .

وانما كان بالكوفة ، فانها كانت مسقط رأسه ، وبها كان وكيلا من قبل الامامين الصادق والكاظم ، وكان المفضل حياً حتى سنة ١٨٣ هـ . وهي السنة التي توفي بها الكاظم ، ولم يدم بعد ذلك إلا قليلا ، لا سيما وان الاخبار لم تكن متوفرة عن اتصاله بالرضا مما ترجح عندنا وفاته بعد سنين من موت الكاظم .

٣ - كتب المفضل :

كان المفضل دائباً على الحضور في مدرسة الامام الصادق ، وقد استقى الكثير من الاحاديث والعلوم عنه ، وعن ولده موسى الكاظم ، وعن حفيده ابي الحسن الرضا . . وعند اختصار تلخيص الاحاديث والمعارف في ذهنه وعند ما نضجت في عقله ووعاها حق الوعي ، استطاع أن يؤلف عدداً من الكتب فيما لا يخرج مضامينها ومواضيعها عن حدود الشريعة الاسلامية وعن عظمة الخالق ، وعن الموجودات والخلائق . وسنذكر هنا ما استطعنا الوقوف عليه من كتب المفضل وتأليفه . وهي كما يلي :

١ - كتاب الاهليلجة : هو من إملاء الامام الصادق على المفضل في قصة تروى في أول الكتاب ومفادها : ان طبيباً حاج الامام في الاهليلجة ، وفيها رد على الملحدين المنكرين للربوبية . وقد أوردتها العلامة الشيخ محمد باقر المجلسي في المجلد الثاني في التوحيد من (بحار الانوار) مع الشرح والبيان ، وقال في الفصل الثاني من أول البحار : (ان بعض علماء المخالفين نسب هذا الكتاب إلى الامام الصادق) وهذا مما يحقق نسبه إلى المفضل من إملاء الامام عليه ، وان داخل بعضهم ريب من ذلك !

٢ - كتاب كنز الحقائق والمعارف : هو نفس كتاب التوحيد ، ولا ندري من وضع هذا الاسم الجديد لكتاب التوحيد ، إلا أن الشيخ

أغا بزرك قال : (. . . وسماه - أي كتاب التوحيد - بعض الفضلاء بكنز الحقائق والمعارف) (١) . . . وهذا الاسم غير مطابق لمضامين الكتاب كل المطابقة .

٣ - الوصية : وهي التي أوصى بها الصادق تلميذه المفضل فيما يتعلق بأحوال المسلمين ، ومعائشهم ، وأهوائهم ، وما كان لهم ، وما سيكون ، وما في العالمين السفلي والعلوي من اسرار وخفايا .

وقد ظن الدكتور مصطفى جواد أن رسالة الوصية هذه هي نفس كتاب بدء الخلق الآتي ذكره ، وبعبارة أخرى هي نفس كتاب التوحيد بينما نرى أن الوصية رسالة خاصة ليست لها أية علاقة بكتاب التوحيد ، ونجد في بعض المصادر (٢) قطعاً مقتضبة من وصايا الصادق للمفضل مما يؤكده صيغة قولنا .

أما ما ذكره الرجالي الثبت البصير أحمد بن علي النجاشي المتوفى عام ٤٥٠ هـ من مؤلفات المفضل ، فهي :

٤ - كتاب ما افترض الله على الجوارح من الايمان : جوهر هذا الكتاب دال ومعرّوف من عنوانه وإن كان تفصيل موضوعاته غير بين لدينا .
٥ - كتاب الايمان والاسلام : ويستفاد من النجاشي (٣) أن هذا الكتاب هو نفس الكتاب السابق ، وتطرق إلى ذكره الشيخ أغا بزرك (٤)

(١) الذريعة إلى تصانيف الشيعة ج ٤ ص ٤٨٢ ط الغري بالنجف .

(٢) من تلك المصادر : كتاب بصائر الدرجات ، وكتاب الصادق

ج ٢ ص ٥٥ ط الثانية .

(٣) ص ٢٩٥ من رجال النجاشي . . قال النجاشي : (كتاب

ما افترض الله على الجوارح من الايمان وهو كتاب الايمان والاسلام) وهذا القول صريح في إثبات ما ذكرناه .

(٤) في موسوعته الجليلية (الذريعة) ج ٢ ص ٥١٤ .

إلا انه لم يشر إلى هذا المعنى ، بل عده مستقلاً عن الكتاب السابق .
٦ - كتاب يوم وليلة : ولا يبعد أن يكون موضوع هذا الكتاب خاص في الأعمال المستحبة والأدعية التي سمعها المفضل ورواها عن أهل البيت فيما يتعلق بأعمال اليوم والليلة .

٧ - كتاب علل الشرائع : والظاهر أن هذا الكتاب يبحث عن فلسفة الاحكام الشرعية ، وعن فوائدها ومنافعها ، وما أشبه ذلك ، وإذا تحقق هذا فالكتاب جليل في بابه لا بد أن يكون على جانب من الخطورة
٨ - كتاب فكر وهو الاسم الذي اصطاحه النجاشي (١) لكتاب التوحيد
٩ - كتاب بدء الخلق والحث على الاعتبار : هو نفس كتاب التوحيد . وقد ظن بعض المتأخرين (٢) ان هذا الكتاب مستقل بذاته ، وأنا لا اقرهم على ذلك ، فان النجاشي يصرح قائلاً : (كتاب فكر كتاب في بدء الخلق والحث على الاعتبار) (٣) أي ان كتاب فكر هو كتاب يبحث في بدء الخلق والحث على الاعتبار ، لا سيما اذا علمنا ان حقيقة مضامين الكتاب لا تبحث إلا في الابداع والخلق ، ويتجلى ذلك في قول الامام مخاطباً المفضل (٤) (نبدأ يا مفضل بذكر خلق الانسان فاعتبر به) وقوله أيضاً (٥) : اعتبر يا مفضل ، وقوله كذلك (٦) : اعتبر يا مفضل

(١) رجال النجاشي ص ٢٩٢ .

(٢) كالشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء في المراجعات الريحانية

ج ٢ ص ٨١ ط الاهلية بيروت ، والشيخ أغا بزرك في الذريعة ج ٣ ص ٥١ .

(٣) رجال النجاشي ص ٢٩٦ .

(٤) توحيد المفضل ص ٦ ط الحيدرية الاولى بالنجف .

(٥) المصدر السابق ص ٧ .

(٦) كذلك ص ٢١ .

باشياء خلقت لما رب الانسان . . .

٤ - الاخبار المروية في حقه :

إذا تصفحت كتب الرجال ، وراجعت ما خطه المؤرخون في المفضل ، وجدت ما يدعوك إلى اكباره ، والاعجاب به ، وتقدير خدماته الجملى لآل البيت ، وما كان له من المواقف المحموده في الذب عنهم ، ونصرته لهم نصرة مؤمن بهم ، موقن بما لهم من الدرجات الرفيعة . . . ولما عرف الأئمة منه ذلك بجلوه غاية التبجيل ، وقربوه من أنفسهم ، وانزلوه منزلة الخواص من أصحابهم النقاء من بطانتهم .

فمن الاخبار المعربة عن شخصيته المحترمة ما رواه أبو حنيفة الجمال قال : مر بنا المفضل انا وختني (١) نقشاجر في ميراث لنا ، فوقف علينا ساعة ثم قال : تعالوا معي إلى المنزل ، فأتيناه فأصلح بيننا باربعمئة درهم ، ودفعها إلينا من عنده . حتى اذا استوثق كل واحد منا من صاحبه قال : أما انها ليست من مالي ، ولكن الامام الصادق أمرني اذا تنازع رجلان في شيء ان أصلح بينهما ، وافنديهما من ماله ، فهذا من مال الامام أبي عبد الله (٢) .

ودخل المفضل مرة على الصادق ، فلما بصر به تبسم في وجهه ثم قال : إني إليّ يا مفضل فوري اني لأحبك وأحب من يحبك ! . . يا مفضل لو عرف جميع أصحابي ما تعرف ما اختلف اثنان ! . فقال له المفضل :

(١) الختن : بفتح تين - كل من كان من قبل المرأة مثل الاب والاخ جمعه اختان ، والمراد من اللفظ هنا ظاهراً هو الاخ .

(٢) أول من روى هذا الخبر ثقة الاسلام الكليني في كتابه : الكافي ونقله المجلسي في البحار ج ١١ ص ١٢٠ ، والنوري في المستدرک ج ٣ ص ٥٦٢ ، والمامقاني في تنقيح المقال ج ٣ ص ٢٣٨ - ٢٣٩ .

يا ابن رسول الله لقد حسبت أن أكون قد أنزلت فوق منزلي . . ؟ فاجابه الامام : (بل انزلت المنزلة التي أنزلك الله بها . .) (١) .

وليس شيء أدل على واسع علم المفضل ، وخبرته الواسعة في أحكام الشريعة ، من قول الفيض بن المختار للصادق : (اني لأجلس في حلقات أصحابنا بالكوفة ، فأكاد أشك باختلافهم في حديثهم ، حتى أرجع إلى المفضل ، فيقضي من ذلك علي ما تستريح اليه نفسي ، ويطمئن اليه قلبي) قال الامام : (أجل هو كما ذكرت) (٢) .

وعنه الشيخ الكفعمي (٣) المفضل من البوابين (٤) وقال : (ان المراد

(١) مستدرک الوسائل ج ٣ ص ٥٦٤ .

(٢) تنقيح المقال للمامقاني ج ٣ ص ٢٣٩ .

(٣) في جدول المصباح ص ٢٧٧ ط بمبي . . ونقل عن الكفعمي هذا القول النوري في المستدرک ج ٣ ص ٥٧٠ وأبو علي في رجاله ص ٣١٩ وذكر الأمين في أعيان الشيعة في القسم الاول من الجزء الرابع ص ٥٤٤ ط الترقى : ان المفضل كان بواب الامام الصادق . ومثل هذا في الفصول المهمة لابن الصباغ . . وذكر الأمين أيضاً في أعيان الشيعة في القسم الثاني من الجزء الرابع ص ٦ ط ابن زيدون : ان المفضل كان بواب الامام الكاظم . قال ذلك نقلاً عن كتاب المناقب لابن شهر آشوب .

(٤) البواب في اللغة : هو بمعنى الحاجب ، كما ورد ذلك في (تاج العروس) ج ١ ص ١٥٣ و ص ٢٠٣ ، وفي لسان العرب ج ١ ص ٢١٧ و ص ٢٨٩ . . وكتب عن الحجابة قليلاً محمد فريد وجدي في دائرة معارف القرن العشرين ج ٣ ص ٣٤٧ ط الثانية ، وفصل القول عنها ابن خلدون في مقدمته ص ٢٤٣ ط الارهرية ، وفعل ذلك جرجي زيدان في تاريخ التمدن الاسلامي ج ١ ص ٢٤٤ ط الهلال . . وان مما يستدل به على ان البواب هو بمعنى باب في العلوم والاسرار ، أو ما يشابه هذا المعنى —

من باب الامام على ما يظهر من بعض قدماء الأصحاب هو بابه في العلوم والاسرار . .) ومن كان أجدر من أصحاب الامام بالفضل ، لنيل هذه المكانة ، وجعل الامام منه باباً لعلومه وغيباً لاسراره .

عن هشام بن أحمد قال : دخلت على أبي عبد الله وأنا أريد أن أسأله عن المفضل ، وهو في ضيعة له ، في يوم شديد الحر ، والعرق يسيل على صدره ، فابتدأني بقوله : (نعم العبد - والله لا إله إلا هو - المفضل بن عمر) حتى أحصيتها نيفاً وثلاثين مرة بقولها ويكررها لي (١) .
وسأل أبو الحسن الكاظم بعض أصحابه فيما يقوله الناس في المفضل فاجابه ! يقولون فيه هبه يهودياً أو نصرانياً ، وهو يقوم بأمر صاحبكم قال الامام : (ويلهم . . ما أخبت ما أنزلوه . . ما عندي كذلك ،

— ما جاء في دائرة المعارف للمعلم بطرس البستاني مج ٦ ص ٦٨٩ :
(. .) وحجب السلطان نفسه عن الناس ، فصار هذا الحاجب واسطة بين الناس ، وأهل الرتب العالية ، ثم جعل له آخر الدولة السيف والحرب ثم الرأي والمشورة ، فصارت الخطة أرفع الرتب ، وأوعبها للخطط (وأظن أن هذا الكلام منقول عن ابن خلدون) وإن المراد من لفظ الباب في هذا الموضع بالذات هو باب الأئمة في علومهم وأسرارهم ، كما صرح بذلك القمي في سفينة البحار ج ١ ص ١٤٣ .

(١) رجال الكشي ص ٢٠٧ ، ورجال أبي علي ص ٣٠٨ والمستدرك مج ٣ ص ٥٦٣ ، ورجال الشيخ محمد طه نجف ص ٣٧٢ ، ورجال الاسترابادي ورجال القهطاني المخطوط . . وروى هذا الخبر شيخ الطائفة الطوسي في كتاب الغيبة ، والظاهر أنه أخذه من غير رجال الكشي ، للاختلاف في مواضع المتن والسند . . كما رواه أيضاً محمد بن الحسن الصفار في بصائر الدرجات ، والمجلسي في البحار مج ١١ ص ٩٢ في باب معجزات الامام الصادق ط التبريزي بايران .

ومالي فيهم مثله (١) .

وصرح الشيخ المفيد (٢) بأن المفضل ممن روى النص عن أبي عبد الله على ابنه أبي الحسن موسى ، وأنه من شيوخ أصحابه وخاصته وبطانته وثقاته الفقهاء الصالحين .

وذكر شيخ الطائفة الطوسي (٣) أن المفضل من قوام الأئمة ، وكان محموداً عندهم محبوباً لديهم ، ثم أنه كان من وكلائهم الذين مضوا على منهاجهم .

٥ - تضييد جروحه :

روينا للقارىء بعض الاخبار والاحاديث التي تدل على حظ المفضل الطيبة ، ومكانته السامية في نفوس آل البيت ، تلك المكانة التي دعت أعداءهم إلى نصب الشراك له ، وإيقاعه فيها ، كرميه بالتهمة والباطيل وقذفه بالكاذب والافتراءات .

وإذا رجعنا إلى عصر الامام الصادق ، للمسا تشدد الحاكمين على آل البيت وأصحابهم . وكان أكثر الشيعة يلوذون بأئمتهم ، حفظاً لظهورهم

(١) رجال الكشي ص ٢١١ ، والمستدرک ج ٣ ص ٥٦٤ .

(٢) في كتابه الارشاد ص ٣٠٧ - ٣٠٨ في باب النص على امامة أبي الحسن موسى . ونقل هذا البيان جملة من أصحاب الرجال كالتفرشي في رجاله ص ٣٥٢ ط طهران ، ومجد بن الحسن الاشعري في الجزء الثالث من الوسائل ص ٥٩٨ ط دار الخلافة ، وأبو على في رجاله ص ٣٠٩ ، وعناية الله القهبائي في جمع الرجال - مخطوط - والشيخ محمد طه نجف في اتقان المقال ص ٣٦٩ ، والنوري في المستدرک ج ٣ ص ٥٧٠ ، والمامقاني في تنقيح المقال ج ٣ ص ٢٤٠ .

(٣) في كتاب الغيبة ص ٢٢٤ .

من سيات جلاوزة العباسيين وولاتهم الجائرين الذين لم يألوا جهداً في مطاردة أهل البيت ومن يمت اليهم بصلة .

ومن أجل ذلك اضطر الامام الصادق أن يعمل بالتقية ، حتى صارت التقية هذه سياسة خاصة سار عليها هو وأصحابه جميعاً ، وحتى انه كان يعيب خاصة أصحابه ، كي يبعد الشبه التي تحوم حولهم والتي طالما هددتهم بالموت والفناء . وقد فعل الامام ذلك بدافع الشفقة عليهم لاختفاء حالهم ، حتى لا يتعرض اصحابه للشر .

ولهذا فإن الاحاديث المروية في ذم المفضل والقدرح به ينبغي حملها على التقية ، وكذا ما ورد في حق أمثاله من أجلاء الأصحاب ، بعد تحقيق عدلهم وتواتر المدح لهم . . . فقد روي عن عبد الله بن زرارة بن أعين انه قال له الامام أبو عبد الله : (اقرأ والدك السلام وقل له : انما اعيبك دفاعاً مني عنك ، فإن الناس والعدو يسارعون إلى كل من قربناه وحمدناه مكانه ، لادخال الاذى فيمن نحبه ونقربه ، فيذمونه لمحبتنا له ، وقربه ودنوه منا ، ويرون ادخال الاذى عليه وقتله ، ويحمدون كل من عبناه ، وان نحمد أمره . فانما اعيبك لانك رجل اشتهرت بنا وبمهلك الينا ، وأنت في ذلك مذموم عند الناس ، غير محمود الاثر لمودتك منا ومهلك الينا ، فاحببت أن أعيبك ليحمدوا أمرك في الدين بعيبك ونقصك ويكون بذلك منا دفع شرهم عنك . . الخ (١)

وهناك خبر أورده الكشي (٢) ويستشف منه ان المفضل كان يؤمن بامامة اسماعيل بن الصادق ، ولا صحة لهذا الخبر اطلاقاً ، لأن المفضل كان عالماً في الدعوة الى الامام الكاظم ، حتى دعيت الفرقة المتمسكة

(١) رجال الكشي ص ٩١ ، وكتاب الوسائل ج ٣ ص ٥٨٤ .

(٢) رجال الكشي ص ٢٠٩ ، ورجال أبو علي ص ٣٠٨ ، ورجال

الاسترآبادي ص ٣٤٢ .

بإمامة الكاظم والتي انبعت المفضل في رأيه - دعيت هذه الفرقة بـ (المفضلية) نسبة إليه . . قال محمد بن عبد الكريم الشهرستاني المتوفى عام ٥٤٨ هـ :
 (الموسوية أو المفضلية : فرقة واحدة قالت بإمامة موسى بن جعفر نصاً عليه
 بالاسم ، حيث قال الصادق (سابعكم قائمكم) . . ولما رأت الشيعة أن
 أولاد الصادق على تفرق ، فمن ميت في حال حياة أبيه لم يعقب ، ومن مختلف
 في موته ، ومن قائم مدة يسيرة ميت غير معقب . وكان موسى هو الذي
 تولى الأمر ، وقام بعد موت أبيه ، رجعوا إليه ، واجتمعوا عليه مثل
 المفضل بن عمر ودرارة بن أعين وعمارة الساباطي (١) .

وكتب عدة من أهل الكوفة إلى الصادق قالوا : (ان المفضل يجالس
 الشطار (٢) وأصحاب الحمام (٣) وقوماً يشربون شراباً ، فينبغي أن

(١) ص ٣ - ٤ ج ٢ من كتاب الملل والنحل ط الأدبية بمصر .

(٢) لعل المراد من أصحاب الشطار : ما أشار إليه الزبيدي في تاج
 العروس ج ٣ ص ٢٩٩ إذ يقول : « الشاطر من أعيا أهله ومؤدبه خبثاً
 ومكراً جمعه الشطار كرمز ، وهو مأخوذ من شطر عنهم : اذا تزع
 مراوغاً ، وقد قيل له مولد « اه . والعامة عندنا تستعمل هذا اللفظ
 في النبيه الماضي في أموره ويخلط المكر ويحسن المراوغة . وقد ألف
 الجاحظ في هذا المعنى كتاباً أسماه (أخلاق الشطار) راجع معجم الأدباء
 ج ١٦ ص ١١٠ ط دار المأمون ، وكتاب { آثار الجاحظ } لمحرر هذه
 السطور - مخطوط - .

(٣) الحمام : طائر معروف - والواحدة حمامة للذكر والأنثى ، لأن
 الهاء هنا ليست للتأنيث ، وإنما هي للدلالة على الفردية . وأصحاب الحمام
 - كما يظهر - هم الذين يتعاطون بيعه واللهو به والانس بطيرانه ، على نحو
 ما نراه في وقتنا . . وقد كتب عن الحمام مفصلاً - ١ - القلقشندي في صبح
 الأعشى ج ٧ ص ٢٣١ وج ١٤ ص ٣٨٩ ط الأميرية بالقاهرة - ٢ - البستاني -

تكتب اليد ، وتأمره أن لا يجالسهم ، فكتب إلى المفضل كتابا وختمه ودفعه اليهم ، وأمرهم أن يدفعوا الكتاب من أيديهم إلى المفضل . ولما جاؤا المفضل ، ودفعوا إليه الكتاب ، ففكه وقرأه ، فإذا فيه : (بسم الله الرحمن الرحيم . . . اشر كذا وكذا وكذا) ولم يذكر فيه قليلا ولا كثيرا مما تحدثوا به مع الامام ، فلما قرأ الكتاب دفعه إلى كل واحد من الذين جاؤا بالكتاب ، ثم قال : ماتقولون . . ؟ قالوا : هذا مال عظيم ! دعنا حتى ننظر فيه ونجمعه ونحمله إليك ، ثم ندرك الانزال بعد ظهر في ذلك . وأرادوا الانصراف فقال المفضل : تغدوا عندي ، فاجلسهم لغدائه ، ووجه المفضل إلى أصحابه الذين سعوا بهم ، فلما جاؤا إليه ، قرأ عليهم كتاب الصادق ، فرجعوا من عنده ، وحبس المفضل هؤلاء ليغدوا عنده فرجع الفتيان ، وحمل كل واحد منهم على قدر مقدرته الفأ والفين وأكثر فحضرُوا واحضروا التي دينار وعشرة آلاف درهم ، قبل أن يفرغ هؤلاء من صلاتهم . فقال لهم المفضل : تأمروني أن أطرد هؤلاء من عندي . . ! تظنون ان الله محتاج إلى صلاتكم وصومكم (١) .

- في دائرة المعارف مج ٧ ص ١٦٣ - ٣ وجدي في دائرة معارف القرن العشرين مج ٣ ص ٦٠٧ - ٤ - الجاحظ في كتاب الحيوان ج ٣ ص ٤٥ - ٧٩ ط التقدم - ٥ - الدميري في حياة الحيوان ص ١٨٨ ط الحجر - ٦ - ابن سيدة في المخصص سفر ٨ ص ١٦٨ ط الأولى - ٧ - جرجي زيدان في تاريخ التمدن الاسلامي ج ١ ص ٢٢٣ ط الثانية - ٨ - وكتابه الآخر عجائب الخلق ص ١٤٧ - ١٥٤ ط الثانية - ٩ - مجلة الهلال السنة ٤٤ ص ٨٨٥ .

(١) رجال الكشي ص ٢٠٩ - ٢١٠ ، والمستدرک مج ٣ ص ٥٦٣ ، ورجال المامقاني مج ٣ ص ٢٣٩ ، ورجال الاسترآبادي ص ٣٤٢ . وائقان المقال ص ٣٦٨ - ٣٦٩ .

وذكر النوري (١) ان الشيخ الصدوق روى في - من لا يحضره
 الفقيه - عن المفضل بن عمر ، وقد قال الصدوق في مقدمة كتابه (٢) :
 « ان لم أقصد قصد المصنفين في ايراد جميع ما روه ، بل قصدت إلى
 ايراد ما أفتى به ، واحكم بضحته ، واعتقد انه حجة فيما بيني وبين ربي
 تقدس ذكره ، وجميع ما فيه مستخرج من كتب مشهورة عليها المعول »
 ونحن اذا قرأنا هذا القول وضح لنا ان المفضل ممن يعتمد عليه الصدوق
 ولو كان غير مرضي عند الأئمة ، لما خفي على الصدوق القريب من
 زمانهم ، ولما أودع خبر المفضل في كتابه ، وجعله حجة فيما بينه
 وبين ربه .

وحكم المشهور فيما لو تلبس بصلاة الليل ، ولم يتم أربع ركعات ،
 وطلع الفجر ، قطعها وأتى بفريضة الصبح - ان هذا الحكم المشهور مأخوذ
 من رواية للمفضل (٣) .

(١) في المستدرک ج ٣ ص ٥٦٢ .

(٢) كتاب من لا يحضره الفقيه .

(٣) استدللهم على هذا الحكم المشهور ، جماعة منهم الزاقي في
 المستند ص ٤٤ ، والميرزا القمي في الغنائم ص ١٢٥ ، والسيد علي
 بحر العلوم في البرهان القاطع ج ٣ ص ٤٤ والمحقق شيخ الطائفة في الجواهر
 وأغراضها الهمداني في مصباح النقيض استدلل هؤلاء العلماء بعدة أحاديث منها
 حديث المفضل الذي رواه الشيخ الطوسي في التهذيب في باب كيفية الصلاة
 وصفتها ، وروى عنه في الوافي ج ٢ ص ٥٦ في باب من ضاق عليهم
 وقت صلاة الليل . وها هو الحديث : - . عن أحمد بن محمد عن علي بن
 الحكم عن زرعة عن المفضل بن عمر ، قال : قلت لأبي الله : أقوم وأنا
 أشك في الفجر ، فقال : صل على شكك ، فإذا طلع الفجر فأوتر وصل
 الركعتين ، فإذا أنت قمت وقد طلع الفجر ، فابدأ بالفريضة ، ولا تصل -

وكان ابن شعبة قد عقد في كتابه النفيس - تحف العقول - بعد أبواب مواظب الأئمة وحكمهم على الترتيب - عقد باباً في مواظب المفضل ، ذكر فيه جملة من النصائح القيمة التي روى أكثرها عن الصادق . . . ومما فيه عن المفضل قال أبو عبد الله وأنا معه : يا مفضل كم أصحابك . . ؟ فقلت : قليل . ! فلما انصرفت إلى الكوفة أقبلت عليّ الشيعة تمزقني شراً ممزقاً ! وتأكل لحمي ، وتشتّم عرضي ! حتى إن بعضهم استقبلني فوثب في وجهي ، وبعضهم قعد لي في سلك الكوفة يريد ضربني ! ورماني الكثير منهم بالبهتان . فبلغ ذلك أبا عبد الله ، فلما رجعت إليه في السنة الثانية كان أول ما استقبلني به - بعد تسليمه عليّ (١) - أن قال : يا مفضل ما هذا الذي بلغني . ؟ أن هؤلاء يقولون لك وفيك ، قلت : وما عليّ في قولهم قال : أجل بل ذلك عليهم . أيفضبون . ؟ بؤساً لهم ! أنك قلت إن أصحابك قليل ، لا والله ما هم لنا بشيعة ، ولو كانوا لنا شيعة ما غضبوا من قولك ولا اشمأزوا منه ، لقد وصف الله شيعتنا بغير ما هم عليه ، وما شيعة جعفر إلا من كلف لسانه ، وعمل لخالقه ، ورجا سيده ، وخاف الله - وفي آخر حديث الإمام مخاطباً المفضل - أما إني لولائي أخاف عليهم أن أغويهم بك لأمرتك أن تدخل بيدك وتغلق بابك ثم لا تنظر إليهم ما بقيت ولكن إن جاؤوك فاقبل منهم فإن الله قد جعلهم حجة على أنفسهم واحتج (٢)

- غيرها ، فإذا فرغت فاقض مكانك ، ولا يكون هذا عادة ، وإياك أن تطلع هذا أهلك ، فيصلون على ذلك ، ولا يصلون بالليل .

(١) لعل الصحيح في العبارة : تسليمي عليه ، لما تقتضيه الآداب المرعية مع الإمام .

(٢) كذا في الأصل ، وربما كان الصحيح : احتج بهم على غيرهم ، كما هو المفهوم من سياق العبارة .

على غيرهم (١) :

٦ - اتصال العرب بالثقافة اليونانية :

في مقال للباحث القدير والدكتور النبيه مصطفى جواد (٢) تطرق إلى كتاب توحيد المفضل ، فحاول أن يثبت أن هذا الكتاب ليس للامام الصادق ، وإنما هو للجاحظ أبي عثمان عمرو بن بحر بن محبوب البصري ! . فقال أن رسالة التوحيد هذه : (تمثل النهضة العلمية التي بدأت على عهد المأمون ، وأثمرت في أيام الجاحظ وغيره من الفلاسفة والمتكلمين ، وذلك لورود الأسماء اليونانية فيه مثل « قوسيموس » (٣) وغير ذلك) . . وقد خفي على ذهن الدكتور الثاقب أن العرب لم يكونوا بمعزل عن الثقافات اليونانية المختلفة ، فقد اتصلوا بها منذ العصر الجاهلي حتى بزوغ فجر الاسلام . .

فهذا الحارث بن كلدة (٤) كان من ثقيف أهل الطائف ، رحل إلى

(١) نقل هذا القول عن (تحف العقول) العلامة النوري في مستدركه

ج ٣ ص ٥٧٠ - ٥٧١ .

(٢) هذا المقال بعنوان (أتوحيد المفضل . . أم توحيد الجاحظ ؟)

نشر في العدد العاشر للسنة الأولى من مجلة - لواء الوحدة الاسلامية -

المصادر بتاريخ ٤ / ١ / ١٣٦٩ هـ = ٢٢ - ٤ - ١٩٥٠ م .

(٣) قال الامام الصادق في تفسير هذه الكلمة : (أن اسم هذا العالم

بلسان اليونانية الجاري المعروف عندهم قوسموس وتفسيره الزينة وكذلك

سمته الفلاسفة ومن ادعى الحكمة) أنظر توحيد المفضل ص ٨٩ ط

الحيدرية الأولى .

(٤) كلدة (بكسر ففتحتين) كما في فجر الاسلام ج ١ ص ١٩٠ ،

وصورة ثانية (بفتح فسكون فضم) كما في مقدمة ابن خلدون ص ٤٩٥ -

أرض فارس ، وأخذ الطب من أهل تلك الديار من جنديسابور وغيرها في الجاهلية ، وجاد في هذه الصناعة ، وطب بأرض فارس ، وعالج فيها كثير آ ، وشهد أهل تلك الأرض - ممن رآه - بعلمه ، واشتهر طبه بين العرب (١) . وهذا الآخر النضر بن الحارث وهو ابن خالة النبي سافر إلى البلاد الفارسية كأبيه ، واجتمع مع الأفاضل والعلماء بمكة وغيرها ، وعاشر الأخبار والكهنة ، واشتغل وحصل من العلوم القديمة أشياء جليلة القدر ، واطلع على علوم الفلسفة وأجزاء الحكمة ، وتعلم من أبيه أيضا ما كان يعلمه من الطب وغيره (٢) .

وحق بعد الاسلام بوقت غير طويل ظل العرب متصلين بالثقافة اليونانية . . فقد كان الحكيم الأمير خالد بن يزيد بن معاوية الأموي المتوفي عام ٨٥ هـ من أعلم قریش بفنون العلم ، وله كلام في صنعة (٣) الكيمياء والطب . . وقد ترجمت له جمهرة كبيرة من الكتب الفلسفية والطبية والكيمائية . . وخالد هذا أول من عنى بعلوم الفلسفة عناية تامة ، وكان ط دار الكشاف ، وصورة ثالثة (بفتحات ثلاث) كما في لسان العرب ج ٤ ص ٣٨٤ ، وتاج العروس ج ٢ ص ٤٨٦ ، وهذه الصورة أصبح الصور وأرجعها .

(١) اخبار الحكماء لابن القفطي ص ١١١ - ١١٢ ط السعادة ، وطبقات الاطباء لابن أبي اصيبعة ج ١ ص ١١٠ ، ومجلة المرشد ص ٦ من المجلد الثاني ، والاعلام للزركلي ج ١ ، وشعراء النصرانية للويس شيخو .

(٢) زهر الاداب للحصري ج ١ ص ٢٧ ط التجارية وطبقات الأطباء (٣) غلب استعمال هذه الكلمة لما يطلق عليه الآن (علم الكيمياء) وقد أكثر من استعمالها العرب الأوائل . والمراد بها اليوم هي الكيمياء القديمة .

قد أمر باحضار جماعة من فلاسفة اليونانيين ممن كان ينزل مصر ويتفصح بالعربية ، وقد أخذ هؤلاء بدورهم من نقل الكتب في اللسان اليوناني والقبطي إلى العربي (١) .

ويحكى ان ماسرجويه البصري (٢) كان عالماً في الطب ، وكان في أيامه كتاب في الطب هو كُنَاش (٣) من أفضل الكُنَاش ، ألفها اهلون ابن أعين (٤) في اللغة السريانية ، فنقلها ماسرجويه إلى العربية ، وهي تحتوي على ثلاثين مقالة ، وزاد عليها ماسرجويه مقالتين (٥) .

(١) تجد ترجمة خالد وما كان من أمر الترجمة والنقل في أيامه في اخبار الحكماء ص ٢٨٩ ، وفهرست ابن النديم ص ٣٣٨ و ٤٩٧ ، ومعجم الادباء لياقوت ج ٤ ص ١٦٥ ، وشرح لامية العرب للصفدي ج ١ ص ١٢ ، ووفيات الاعيان ج ١ ص ١٦٨ ، وخطط الشام لمحمد كرد علي ج ٤ ص ٢١ ، وتاريخ آداب اللغة العربية لرجي زيدان ج ١ ص ٢٢٨ ، وعصر المأمون لوفاعي ج ١ ص ٤٧ ، وضحي الاسلام لاجد أمين ج ١ ص ٢٧٠ .

(٢) هو من معاصري الخليفة الاموي مروان بن الحكم ، وقديكتب اسمه ماسرجيس .

(٣) الكُنَاش : بضم فتشديد - مجموعة كالدفتر تدرج فيها الشوارد والفوائد . والوارد في اللغة تأنيث هذا الاسم .

(٤) قال ابن النديم في الفهرست ص ٤١٣ ط مصر : اهلون القس في صدر الدولة - أي الدولة الاموية - وعمل كتابه بالسرياني ، ونقله ماسرجيس إلخ .

(٥) طبقات الاطباء ج ١ ص ١٠٩ . قال ابن النديم في الفهرست ص ٤١٣ : ماسرجيس من الاطباء . وكان ناقلاً من السرياني إلى العربي وله من الكتب : كتاب قوى الاطعمة ومنافعها ومضارها ، كتاب قوى -

ولما تولى الخلافة عمر بن عبد العزيز ، وجد هذه الكنائس في خزائن الكتب بالشام ، فخرضه ذلك على اخراجها إلى المسلمين للانتفاع بها ، فاستخار الله في ذلك أربعين يوماً ثم اخرجها إلى الناس ، وبشها في أيديهم (١) .

ومن عرف بالفلسفة أيام الامويين يحيى النحوي . . . وكان أسقفاً في الكنائس بمصر ، ويعتقد مذهب النصارى اليعاقبة (٢) ثم رجع عما يعتقد به النصارى في التثليث (٣) وعاش إلى أن فتحت مصر على يد عمر بن العاص فدخل اليه وأكرمه ، ورأى له موضعاً . . . وعرف عنه انه فسر كتب أرسطو (٤) .

ومنهم اصفطى الحراني الراهب . . . كان بالموصل في عمر (٥) يقال له ميخائيل ، وقد نقل لخالد بن يزيد كتاب الصنعة ، ذكره ابن نختيشوع في كتابه ، وقال عنه انه كان طبيباً (٦) .

ومنهم يعقوب الرهاوي السرياني ، وقد ترجم كثيراً من كتب

- العقاقير ومنافعها ومضارها .

(١) فجر الاسلام ج ١ ص ١٩٢ ، وتاريخ التمدن الاسلامي لزيدان ج ٣ ص ١٣٥ ط الهلال نقلا عن تاريخ الحكماء المخطوط .

(٢) انظر عن اليعاقبة الفصل لابن حزم ج ١ ص ٤٩ ط الاولى .

(٣) التثليث هو القول بان الله ثالث ثلاثة هم : الاب ، والابن والروح القدس .

(٤) فهرست ابن النديم ص ٣٥٦ .

(٥) عمر : بضم فسكون - البيعة أو الكنيسة .

(٦) أخبار الحكماء ص ٤٢ ، والفهرست ص ٥٠٥ ، وعصر المأمون

ج ١ ص ٤٩ ، وطبقات الاطباء .

الالهيات اليونانية (١) :

ومنهم أبو العلاء سالم كاتب هشام بن عبد الملك . وقد نقل من رسائل أرسطو الى الاسكندر (٢) .

وأول كتاب ترجم من اليونانية إلى العربية - بقطع النظر عن كتب الكيمياء - هو على المحتمل كتاب عرض مفتاح النجوم المنسوب إلى هرمس الحكيم (٣) وقد فرغ من ترجمته في ذي القعدة سنة ١٢٥ هـ (٤) .

وهكذا تبين لنا ان الثقافة اليونانية انتشرت في العصر الاموي في كثير من الحواضر العربية ، كالشام والاسكندرية والعراق ، وامتزج العلماء السريانيون بالولاة الحاكين من الامويين ، فكان لذلك أثر كبير في تزواج عقول المسلمين ، وتفتحها على آفاق - تكاد تكون بعيدة - من المعرفة والعلم . . ومن يرجع إلى فهرست ابن النديم ، وإلى الكتب التاريخية الاخرى ، ويتصفح ما فيها من أسماء المؤلفات المترجمة من السريانية واليونانية ، يجد ان لرجال الدولة الاموية قسط وفير في امتداد العقل العربي ، واتصاله بالعقول المثقفة الاخرى .

وما كان تمضي على سقوط الدولة الاموية في الشام ثمانون سنة ، إلا وكان بين يدي العرب مترجمات عن كثير مما كتب أرسطو ، وتعليقات

(١) فجر الاسلام ج ١ ص ١٥٦ ، وعلم الفلك لكرولونليو ص ٢٧٩ ط روما .

(٢) الوزراء والكتاب للجهمشيري ص ٣٩ - ٤٠ ط الاولى ، وفهرست ابن النديم ص ١٧١ .

(٣) وجدت نسخة من هذا الكتاب في جملة من نيف والف وستائة مجلد عربية خط يد ، اقتها في شهر نوفمبر عام ١٩٠٩ م الامبرسيانيه في ميلانو من مدن ايطاليا .

(٤) علم الفلك لكرولونليو ص ١٤٢ - ١٤٣ .

الذين اشتهروا من رجال « الافلاطونية الجديدة » وقسم من كتب أفلاطون ، والجزء الاكبر من كتب جالينوس ، وأجزاء اخر نقلت عن كتب الاطباء ، وطائفة غيرها من كتب اليونانيين وكتب الهند وفارس (١) .

ويقسم المؤرخون أدوار الترجمة في العهد العباسي إلى ثلاثة أقسام ، يهمننا هنا ذكر أولها ، وهو يبدأ من خلافة المنصور ، وينتهي بعهد هارون الرشيد أي من عام ١٣٦ هـ إلى عام ١٩٣ هـ ، وفي هذا الدور ترجم كتاب كيلة ودمنة (٢) من الفارسية ، والسندهند (٣) من الهندية ، وترجمت باقية من كتب ارسطو في المنطق ، وترجم أيضاً كتاب المجسطي في الفلك (٤) .

(١) تاريخ الفكر العربي لاسماعيل مظهر ص ٢٧ - ٢٨ .

(٢) ترجمه ابن المقفع ، أنظر الكلام عن الكتاب ضحى الاسلام لأحمد أمين ج ١ ص ٢١٦ - ٢٢٢ ط الثانية .

(٣) في الكلام عن صيغة هذه اللفظة وأصلها راجع كتاب علم الفلك للسنينور كرولونينو ص ١٥٠ - ١٥١ وقد نقل الاب انستاس الكرملي في مقال له نشر في مجلة المعلم الجديد جزء ٣ سنة ٤ هـ امش ص ٢٥٧ جميع ما حققه السنينور نلينو ، ولم يعزوه إلى مصدره ، وهذا عمل يخالف ما تقتضيه الامانة التاريخية ، ويدعو اليه الضمير العلمي .

(٤) ضحى الاسلام ج ١ ص ٢٦٤ - وكتاب المجسطي لبطليموس هو الذي عرفنا بتطبيق البراهين على بيان الحركات السماوية ، ووضح كيفية الارصاد ، إلى غير هذا من البحوث التي جعلت الكتاب أشرف وأحسن ما صنف في علم الفلك حتى ذلك الزمن . . والظاهر ان كتاب المجسطي قد ترجم إلى العربية في الزمن الاول ثلاث مرات ، فالاولى ترجمة ثابت بن قرة ، والثانية ترجمة قسطا بن لوقا البعلبيكي ، والثالثة ترجمة حنين بن -

وكان المنصور الدورانيقي أول من أهتم من خلفاء العباسيين بالنقل والترجمة ، وكان جل اهتمامه بالنجوم والطب . وقد رغب نقلة العلم في ذلك بالبذل الكثير ، وجعل لبعضهم رواتب وجواريًا ، وبالغ في إكرام النقلة ومحاسنتهم ، وأكثرهم كان من المريان النساطرة ، لانهم أقدر من غيرهم على الترجمة من اليونانية . وأكثرهم اطلاعاً على كتب الفلسفة والعلم اليوناني أشهرهم آل بنخيشوع سلالة جورجيس بن بنخيشوع السرياني النسطوري طبيب المنصور ، ومنهم من نقل من الفارسية إلى العربية ، كابن المقفع وآل نوبخت (١) ، وترجم ابن المقفع كتب أرسطو المنطقية الثلاثة التي في صورة المنطق (٢) . . وقبل انتهاء القرن الثاني نقل من اليونانية كتاب كتاب الاسرار لمؤلف مجهول الاسم (٣) .

وتطرق الى ما في العصر العباسي الاول من العلوم المؤرخ المنسعودي (٤) فانه قال : - ان ذلك العصر كان خصيباً في الترجمة والانتاج الادبي ، فنقل فيه عدة مقالات عن أرسطو ، وكتاب المجسطي لبطليموس في الفلك ، وكتاب اقليدس في الهندسة ، ومواد أخرى عن اليونانية . وبعد فان الدكتور مصطفى جواد يرد نفسه بنفسه ، وذلك في

- اسحاق العبادي . . ثم ترجم بعد ذلك عدة مرات ، حتى وقع في الترجمات شيء كثير من الاختلاف واللبس ، فاذرى الى تنقيح الكتاب العلامة الحواجة نصير الدين الطوسي وطبع كتابه بعنوان - تحرير المجسطي - ثم جاء العالم الفاضل عبد العلي بن محمد بن الحسين فشرح التحرير وشرحه مخطوط محفوظ في خزانة معالي السيد صادق كمونة .

(١) تاريخ آداب اللغة العربية ج ٢ ص ٣٢ .

(٢) طبقات الامم لصاعد الاندلسي ص ٧٧ ط السعادة .

(٣) علم الفلك لكرولونينو ص ٢١٩ .

(٤) في كتابه مروج الذهب ج ٨ ص ١٩١ - ١٩٢ ط ليزج .

كتاب - تاريخ العرب - الذي اشترك في تأليفه هو وجماعة من اخوانه الفضلاء . فجاء في الكتاب المذكور ص ٢٦ ط العاني في الكلام عن سيرة العرب قبل الاسلام . . . وكان للعرب ثقافة تمثل نتيجة ما أفادوه من غيرهم ، فكانوا يعرفون أخبار الامم ، كما كانوا يعرفون شيئاً من السير والتاريخ والقصص والاساطير . وكان منهم من يعرف اللغات الأجنبية والآرامية والفارسية والرومية ، وعدددهم قليل . . - ثم يتطرق الدكتور وجماعته في ص ١٦٢ - ١٦٣ إلى حديث الترجمة في العصر الأموي ، وما نقل من الكتب الطبيعية والكياوية .

وهكذا يظهر لنا واضحاً جلياً ان حركة الترجمة والنقل كانت تسبق عهد الامام الصادق ، بل ان العرب كانوا على علم تام بالثقافة اليونانية في أيامه والامام عاصر تلك النهضة العلمية في عصر المنصور ، وكان له في تسيير دفنها نصيب كبير ، حتى قال عنه السيد أمير علي (١) : . . ولا يفوتنا ان نشير الى ان الذي تزعم تلك الحركة هو حفيد علي بن ابي طالب المسمى بالامام جعفر والملقب بالصادق ، وهو رجل زحبا وفق التفكير بعيد اغوار العقل ، ملم كل الامام بعلوم عصره ، ويعتبر في الواقع أول من ابس المدارس المشهورة في الاسلام .

يضاف الى ذلك انه ورد في اخبار الامام الصادق ما يدل على اطلاعه الوافر على جملة من اللغات الأجنبية (٢) فلا نستبعد معرفته باللغة

(١) في كتابه - مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامي - ص ١٧٩ ط لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر .

(٢) انظر في ذلك ما رواه عمار الساباطي عن معرفة الصادق بالقبضية ، وما رواه أبان بن تغلب عن المام الصادق باللسان الفارسي والنبطي والحبشي والصقلي (البحار ج ١١ ص ٩٥ - ٩٦ . وبصائر الدرجات ج ٧ الباب ١٢) .

اليونانية ، والعقل لا يمنع ذلك على مثل الصادق وماله من منزلة الثقافية الكبيرة ، وعن طريق معرفته باللغة اليونانية اتصل بأدائها وعلومها ، واثبت عدداً من أسماء اليونانيين وكلماتهم في كتاب « توحيد المفضل » ولا يفوتنا أن نشير إلى أن للشيعة الامامية رأياً خاصاً في أئمتهم ، ويذهبون في علمهم مذهبا لا يخضع لما يقرره الدكتور مصطفى جواد ، من لزوم انتشار العلم بين الناس ، حتى يتسنى للامام أن يحصله على يد أساتذة علماء ، ثم يملئه على تلاميذه وطلابه (١) . . . والامام يجب أن يكون - على رأي الامامية - عالماً بكل شيء ، واعلم الناس في علم وفي لسان وفي لغة (٢) وان الامام مرجع العالم في كل شيء ، ويجوز أن يسألوه عن كل شيء ، فيجب أن يكون عنده علم كل شيء (٣) .

٧ - كتاب توحيد المفضل :

كان الباعث للامام الصادق على وضع كتاب التوحيد : ان المفضل كان جالسا ذات يوم في روضة القبر النبوي فاذا هو بجماعة من الزنادقة فيهم عبد الكريم بن أبي العوجاه (٤) فيدور الحديث بينهم في قضايا الحادية

(١) راجع مقال السيد محمد حسين الصافي المنشور في مجلة الغري

العدد ٢ - ٣ السنة ١١ .

(٢) كتاب الصادق للشيخ محمد حسين المظفر ج ١ ص ٢١٢ .

(٣) الشيعة والامامة للمظفر ص ٢٠ ط الغري .

(٤) أنظر أحواله وآراءه في كتاب الاحتجاج للطبرسي ص ١٨٠

و ١٨١ ط ايران وتاريخ الطبري ج ٣ ص ٣٧٥ وما بعدها ط ليدن

وفهرست ابن النديم ص ٣٣٨ ، والفرق بين الفرق للبغدادي ص ٢٥٥

ط محمد بدر ، ودائرة المعارف الاسلامية ج ١ ص ٨١ ، وأمالى المرتضى

ج ١ .

عنيقة ، تثور لها نائرة الايمان في قلب المفضل ، ويتوجه - بعد نقاش
حاد جرى بينه وبين ابن أبي العوجاء - إلى دارالامام الصادق ليخبره بحلية
الأمر . فما عتم الصادق ان أملى عليه كتاب التوحيد الذي ينتظم من أربعة
مجالس في أربعة أيام ، من الغدوة إلى الزوال .

وهذا الذي بين أيدينا من كتاب التوحيد له تنمة أو جزء ثان ،
لأن الامام وعد المفضل أن يملئ عليه حديثا آخر عن علم ملكوت السموات
والارض وما خلق الله بينهما الخ . وقد رأينا هذا الجزء الثاني من التوحيد
مطبوعا بتمامه في « تباشير الحكمة » - فارسي طبع بايران سنة ١٣١٩ هـ -
تأليف السيد ميرزا أبي القاسم الذهبي الشيرازي المتوفى سنة ١٢٨٦ هـ . ولم
يمكننا الوقت الضيق من درس هذا الجزء والوقوف على أبحاثه بشكل دقيق
ولم يغفل العلماء والفضلاء عن مراجعة كتاب التوحيد ، والارتشاف
من منهل علم الامام ، وقد تطرق إلى ذكره جماعة من اولئك العلماء
والفضلاء نذكر منهم :

١ - أبو العباس أحمد بن علي النجاشي المتوفى عام ٤٥٠ هـ في رجاله
ص ٢٩٦ ط بمبي .

٢ - رضي الدين علي بن طاووس المتوفى عام ٦٦٤ هـ في كتابه الامان
من أخطار الاسفار والازمان ص ٧٨ ط الحيدرية في النجف وفي كتابه
الآخر كشف المحجة ص ٩ ط الحيدرية في النجف .

٣ - محمد تقي المجلسي المتوفى عام ١٠٧٠ هـ في كتاب شرح المشيخة
- مخطوط - وقد شرحه باللغة الفارسية .

٤ - محمد باقر المجلسي المتوفى عام ١١١٠ هـ في كتابه بحار الانوار

ج ٢ ص ١٧ - ١٨ .

٥ - وطبع كتاب التوحيد نحو سبع مرات ، منها طبعة مصر على الحجر
وطبعة النفاسة باستنبول والجوائب المصرية وطهران والهند والآداب

بيغداد ، والحيدرية بالنجف ، وكانت مظهره في الطبعة الأخيرة كتاب
(بحار الانوار) وقوبلت بنسخة خطية من كتاب التوحيد هي ملك الصديق
الاستاذ الخطيب السيد عبد الامير الاعرجي كتبت في ١٤ جمادى الاولى
عام ١٢٦٨ هـ .

٨ - مقارنة بين توحيد المفضل وأسلوب الجاحظ :

ما كان الوهم ليختلج في ذهن الدكتور مصطفى جواد عن توحيد
المفضل ، لولا ان مجد راغب الطباخ قد طبع التوحيد منسوبا إلى الجاحظ
بالطبعة العامة بحلب في ٢٩ شعبان سنة ١٣٤٦ هـ - ١٩٢٨ م تحت عنوان
(الدلائل والاعتبار على الخلق والتدبير) . . وما ان رأى الدكتور هذه
النسخة حتى راح يعتقد ان كتاب التوحيد من تأليف الجاحظ حقاً وحقيقة
مع انه سبق ان ذكرنا أنه طبع في مختلف مطابع العالم الاسلامي وفي شتى
أنحائه منذ نيف ومائة وخمسين عاماً ، ولو لم يكن مشهوراً ومعروفاً عند
أهل النظر والعلم في الهند ومصر وتركيا وإيران والعراق لما قاموا بطبعه
وصححوه نسبته إلى الامام الصادق .

ونحن اذا أجملنا الطرف بين صفحات كتاب التوحيد ، واستقرينا
جميع ما فيه من بحوث ومسائل ، وقارناها بكتابات الجاحظ ، وتمعننا في
كل ذلك تمعناً بسيطاً ، لرأينا البون شاسعاً بينها ، والفرق كبيراً ظاهراً
لكل ذي بصيرة . . وللتثبت من ذلك والاستدلال عليه نحيل القارئ إلى
ما كتبه الجاحظ في صدد الكلام عن مشفر الفيل وخرطومه (١) وما كتبه
الامام الصادق في الموضوع نفسه (٢) وقارن أيضاً بين ما قاله الجاحظ عن

(١) كتاب الحيوان للجاحظ ج ٧ ص ٣٨ ط السعادة بمصر .

(٢) راجع توحيد المفضل ص ٤١ .

النحل (١) وما خاطب به الصادق المفضل في البحث ذاته (٢) ، وقارن مرة ثالثة بين ما ذكره الجاحظ في وصف العنكبوت (٣) وما وصف به الصادق طبائع هذا الحيوان العجيب (٤) .

ان هذه المقارنة تعطينا نظرة اجمالية عما بين أسلوب الجاحظ والصادق من التنافر والبعد ، فان الجاحظ في مثل هذه الموضوعات يبدو حريصاً على تجميل الكلام وتنميق الاسلوب ، وطالما نراه يستعمل الحذقة والتظرف في المناقشة مع شيء غير قليل من التماجن والدعابة والسخرية . أما الامام الصادق فانه مسترسل في كلامه كل الترسل ، سمح في عبارته كل السباحة .

ثم ان في كتاب التوحيد تناسق في البحوث ، ووحدة موضوعية منعدمة في مؤلفات الجاحظ ، لان الجاحظ يتبع طريقة الاستطراد ويتعد كثيراً عن صلب الموضوع .

ولو كان كتاب التوحيد للجاحظ حقاً ، لأودع فيه شيئاً من آرائه الخاصة في الاعتزال ، أو آراء بعض أئمة المعتزلة ، وما لهم من عقائد في باب الحكمة والتدبير في الخلق ، كما هو شأنه في بحوثه الكلامية وبالعكس ذلك نرى روح التشيع متجلية ظاهرة في كتاب التوحيد ، وان سهولة عبارته أقرب ما تكون ميلاً إلى أسلوب الامام الصادق والافكار التي كان يملئها على المئات من تلاميذه وأصحابه .

والجاحظ كان يتناول الافكار بروح يبدو أنه خال من حرارة الايمان ، وانه يأتي الفن بقصد اللعب والتلاعب ، واطهار القدرة

(١) كتاب الحيوان ج ٥ ص ١١٦ .

(٢) توحيد المفضل ص ٥٢ - ٥٣ .

(٣) كتاب الحيوان ج ٥ ص ١٢٤ .

(٤) توحيد المفضل ص ٤٧ .

البيانية ، وهي روح تفصيله عن مكان الكاتب ذي الرسالة السامية ،
والذي يقول ويعنى ما يقول ، ثم يؤمن بما يقول ، لذلك لا يحس قارئه
الجاحظ إلا بالنشوة تخامره ، وباللذة تساوره ، وبالعجاب بقدرة هذا
الفنان ، ان اخرج من الحق باطلا ، ومن الباطل حقا . لكنه مع هذا
يمعز أن يحمل القارئ على الايمان بما يرى ، والتصديق لما يقول (١)
والجاحظ اذا أخضع مختلف المواضيع لاسلوبه ، لم يخضع بينها الفلسفة
بحرودها ومصطلحاتها وتعريفها وانما تناولها تناول أديب يتفلسف (٢)
وكتاب التوحيد وان لم يكن موضوعه فلسفيا ، فهو من النتائج
الفلسفية البعيدة الاغوار التي لا ينتهي اليها إلا من أوتي حظا عظيما من الفهم
والدراية بشؤون هذا الخلق ، وأحوال هذا العالم ، مما هو داخل في
حظيرة علم المعقول . . والجاحظ ليس أهلا لخوض مثل موضوع كتاب
التوحيد والوقوف عند أمثاله موقف العاجم لعوده ، الغائص في اغواره
الكاشف عن مبهماته ، العارف باصوله وفروعه .

٩ - مقارنة أخرى بين توحيد المفصل وأخبار الصادق :

ولقد جاء في أخبار الامام الصادق - المروية في الموسوعات الكبيرة
والمثبتة في أمهات الكتب - الكثير مما يشابه المسائل العلمية التي تضمنها
توحيد المفصل ، ويقارب ما احتوى عليه من موضوعات في الطبيعة . .
فمن ذلك ما أثبتته المجلسي (٣) في حديث رواه سالم الضرير في ان نصرانيا
سأل الصادق عن تفصيل الجسم ، وجواب الامام له جوابا لا يعدو المراد

(١) ، (٢) أبو حيان التوحيدي لعبد الرزاق محي الدين ص ٣٥٠

ط السعادة .

(٣) راجع بحار الأنوار ج ١١ ص ١٢٨

منه ما حدث به المفضل في موضوع أعضاء البدن وفوائد كل منها (١) ومثل ذلك ما سأل به أبو حنيفة الامام الصادق عن الشمس والقمر وحديث هشام الخفاف ، وتوجيه الصادق اليه بعض الأسئلة في حر كات النجوم ، وعجزه عن الجواب ، ثم تفصيله هو الجواب عما سأل به (٢) وهذا كله مشابه كل الشبه لما تكلم به الصادق مع المفضل في المجلس الثالث (٣) بل لا يحدو أن تكون المضامين متفقة إتفاقا يدل دلالة قوية على أن الباحثين قد صدرنا من فيض علم رجل واحد .

أما كتاب الاحتجاج للطبرسي ١٨٠-٢٠٦ ط النجف فتجد فيه كثير آمن أحاديث الامام الصادق ، واحتجاجاته الجمّة مع كثير من زنادقة عصره ، وأنت تستطيع أن ترى شدة المشابهة بين تلك الاحتجاجات وبين أكثر المواضع التي طرقتها الامام في كتاب التوحيد .

١٠ - الاسماعلية وكتاب التوحيد :

كان الاسماعليون في المرحلة الاولى من دعوتهم الثورية العقائدية قد تبذروا مكافحة الالحاد ، والقيام بصد الموجة الطاغية التي اجتاحت الفكر الاسلامي من جماعة الشكاكين والملحدّين الذين كانوا يذهبون إلى انكار القوة الخالقة وبعث الرسل ، وأمثال ذلك من الامور التي تتصل بالغيبيات والالهيات .

وقد ابتدأت هذه الحركة من جانب الاسماعيليين منذ ان وضعت الرسائل الرمزية بالاسم الموهوم جابر بن حيان في أوائل القرن الثالث للهجرة ، وامتدت إلى عهد داعي دعائهم الاول ذي العقل الموسوعي

(١) توحيد المفضل ص ١١ ط الحيدرية .

(٢) أنظر البحار ج ١١ ص ١٢٧ و ص ١٣٠ .

(٣) توحيد المفضل ص ٥٥ و ص ٥٦ .

(الانسكلو بيدي) مؤيد الدين الشيرازي (١) ومجالسه المؤيدية المعروفة صورة واضحة تمثل لنا الحرب العوان التي شنها الاسماعيليون على الالحاد والملحدين والتشكيك والشكاكين .

والذي يظهر لدينا ان الاسماعيليين قد ظفروا بكتاب التوحيد ، فوجدوا فيه ظالمتهم المذسودة وأملهم المرجو ، فكتبوا منه عدة مئات من النسخ ، وبشوه بين جماعاتهم وعمموه على أنصارهم ، للدرس عليه والأخذ منه ويظهر لدينا مرة أخرى بان واحداً من أولئك الدعاة الاسماعييين المثقفين قد قرأ كتاب التوحيد ، وسجّره كثيراً ، حتى لقد بدّاه أن يغشيه ثوباً اسماعيلياً خاصاً ، فكتب له مقدمة قصيرة حشاشها ببعض المصطلحات الاسماعيلية وأضاف له الآراء العامة التي يعتقدها أصحاب هذه الفرقة . . فعل ذلك من أجل الدعوة إلى مذهبه ، واشاعته في أكثر عدد ممكن من الناس .

ونحن نستطيع أن نتعرف على هذه الزيادات التي أضافها الاسماعيليون على أصل كتاب التوحيد ، كالذي جاء في مقدمة المجلس الرابع من كلمات مثل هذه (صاحب السر المستور (٢) والغيب المحظور) .

بل ان الشك ليساورنا في المجلس الرابع كله . . . فالذي نخاله ان

(١) المؤيد في الدين هبة الله بن أبي عمران الشيرازي الاسماعيلي ، داعي الدعاة في عصر الخليفة المستنصر بالله الفاطمي ، ولد في شيراز وتقل في أكثر المناطق الاسلامية ، حتى سكن مصر وتوفى بها عام ٤٧٠م . أما مجالسه التي أشرنا إليها فقد عثر الدكتور حسين الهمداني على ثمانية مجلدات منها وهي تشتمل على ٨٠٠ مجلس وكل مجلس عبارة عن محاضرة كان يلقيها مؤيد الدين في دار العلم بالقاهرة .

(٢) يقول مؤيد الدين الشيرازي عن نفسه كما في ديوانه الخطوط :
رضيت التستر لي مذهبا وما ابتغي عنه من معدل

هذا المجلس كله من وضع الاسماعيليين ، فهو لا ينسجم مع مجالس الكتاب الاولى من جهة ، وما فيه من آراء لم تعرف عن الامام الصادق من جهة أخرى ، مع ملاحظة ان موضوعات هذا المجلس متأثرة بفلسفة فيثاغورس العديدة التي كان ينهل من تمييزها الاسماعيليون ، بينما الشيعة الاثني عشرية يواكبون المشائين والرواقيين والاشراقيين .

أما المقدمة التي أضافها أحد الاسماعيليين فتجد فيها مثل هذه الكلمات (امام عصرنا المقيم دعوة الحق بالمطلقين الدعاة) وكذلك هذه الكلمات : (أيد الله داعي هذا الوقت بالمواد اللطيفة والبركات) ومثل هذه المقدمة وتلك الكلمات تبدو لنا دخيلة على كتاب التوحيد ، ولا صلة لها بصלב البحث الذي تدور حوله موضوعات الكتاب .

ولما رجعنا إلى النسخة الخطية من كتاب التوحيد التي يقتنيها الاخ الاستاذ الاعرجي ، وجدناها خالية من المقدمة الاسماعيلية ، وكذلك لم نجد لها في كتاب بحار الانوار ، فاقضى التنبيه على ذلك .

النجف الأشرف ١٩٥٠/٧/١٠
كاظم باقر المظفر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قلنا فيما سبق ان هذه المقدمة ليست لها
أية صلة بالكتاب ، وانما وضعها
أحد الاسماعيليين في عصر متأخر عن
الامام الصادق عليه السلام . .

الحمد لله الذي أوجد الموجودات ، وجعل فيها دلائل ربوبيته
واختات شهادات ، وصلى الله تعالى على محمد رسوله إلى كافة الناس بالبينات
الجالية القلوب إلى الاف رار بالباري ، وللجاحدين رادعات صادات ،
وعلى الأئمة من ذريته سادة الخلق ولهم إلى ذي الحق هداة ، وعلى امام
عصرنا المقيم دعوة الحق بالمطلقين الدعاة ، وأيد الله داعي هذا الوقت
بالمواد اللطيفة والبركات .

﴿ أما بعد ﴾ : فهذا كتاب يشتمل على حكمة الباري جل وعلا
في خلق العالم ومواليده ، الذي يسكن اليه المؤمنون ، ويتحير فيه الملحدون
لما فيه من صواب القول وسديده ، الذي ذكره الصادق عليه السلام
للفضل وهو مقطوع أول ورقة منه والموجود ما يليه هذا وهو نصه وشرحه

« كتاب توحيد المفضل »

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ كلام ابن أبي العوجاء مع صاحبه ﴾

روى محمد بن سنان (١) قال : حدثني المفضل بن عمر (٢) قال :
كنت ذات يوم بعد العصر جالساً في الروضة بين القبر والمنبر ، وانا مفكّر
فيما خص الله تعالى به سيدنا محمداً صلى الله عليه وعلى آله ، من الشرف

(١) هو أبو جعفر الزاهري . ذكر الكشي في شأنه ما يدل على
مدح عظيم وعلى قدح أيضاً ، وذكر انه روى عنه جماعة من العدول
والثقات من أهل العلم والانصاف ، وجميع الروايات المرحلة له واهية
ساقطة ، فقد أشار الكثير إلى قوته والذب عنه ، وتقيد ما قيل فيه من
الضعف . وان اجتماع الاعيان على الرواية عنه أدل شيء على كمال قوته
عده الشيخ المفيد من خاصة الامام الكاظم وثقائه وأهل الورع والعلم
والفقه من شيعته كما عده الشيخ في الغيبة من الوكلاء المرضيين الذين لم يغيروا
ولم يبدلوا ، بل مضوا على منهاج الأئمة ، وفي الخلاصة كان مكفوف
البصر أعشى توفي عام ٢٢٠ هـ .

(٢) مضت ترجمة المفضل بصورة مفصلة في المقدمة .

والفضائل ، وما منحه وأعطاه وشرّفه وحباه ، مما لا يعرفه الجمهور من الأمة ، وما جهلوه من فضله وعظيم منزلته ، وخطير مرتبته ، فاني كذلك إذ أقبل « ابن أبي العوجاء » (١) فجلس بحيث اسمع كلامه فلما استقر به المجلس إذ رجل من أصحابه قد جاء فجلس اليه ، فتكلم « ابن أبي العوجاء » فقال : لقد بلغ صاحب هذا القبر العز بكماله ، وحاز الشرف بجميع خصاله ، ونال الخطوة في كل أحواله ، فقال له صاحبه : انه كان فيلسوفاً ادعى المرتبة للعظمى ، والمنزلة الكبرى ، وأتى على ذلك بمعجزات بهرت العقول ، وضّلت فيها الاحلام ، وغاصت الأبواب على طلب علمها في بحار الفكر ، فرجعت خاسئات وهي حُسّر ، فلما استجاب لدعوته

(١) هو عبد الكريم بن أبي العوجاء ربيب حماد بن سلمة على ما يقول ابن الجوزي ومن تلامذة الحسن البصري ، وذكر البغدادي انه كان مانوياً يؤمن بالناسخ ويميل الى مذهب الرافضة (١) ويقول بالقدر ، ويتخذ من شرح سيرة ماني وسيلة للدعوة ، وتشكيك الناس في عقائدهم ، ويتحدث في التعديل والتجوير على ما يذكر البيروني . ومن هنا يتبين ان ابن أبي العوجاء هذا كان زنديقاً مشهوراً بذلك . وله مواقف حاسمة مع الامام الصادق ، أخيه الامام في كل مرة منها ؛ سجنه والى الكوفة مجد بن سليمان ثم قتله في أيام المنصور عام ١٥٥ هـ ، وقيل عام ١٦٠ هـ في أيام المهدي تجد ذكره في تاريخ الطبري ج ٣ ص ٣٧٥ ط ليدن ، وفهرست ابن النديم ص ٣٣٨ ، والفرق بين الفرق ص ٢٥٥ ط مجد بدر ، ودائرة المعارف الاسلامية مج ١ ص ٨١ ، واحتجاج الطبرسي ص ١٨٢ و ١٨٣ ط النجف ، وما للهند من مقولة ص ١٣٢ .

العقلاء والفصحاء والخطباء ، دخل الناس في دينه أفواجا ، فقرر اسمه باسم ناموسه (١) فصار يهتف به على رؤوس الصوامع ، في جميع البلدان والمواضع ، التي انتهت إليها دعوته ، وعلتها كلمته ، وظهرت فيها حجته برأ وبجراً ، سهلاً وجبلاً ، في كل يوم وليلة خمس مرات مردداً في الأذان والإقامة ، ليتجدد في كل ساعة ذكره ، ولئلا يخمل أمره .

فقال « ابن أبي العوجاء » : دع ذكر محمد صلى الله عليه وعلى آله فقد تحير فيه عقلي ، وضل في أمره فسكري . وحدثنا في ذكر الاصل الذي نمشي له . . ثم ذكر ابتداء الأشياء ، وزعم ان ذلك باهمال لا صنعة فيه ولا تقدير ، ولا صانع ولا مدبر ، بل الأشياء تتكون من ذاتها بلا مدبر ، وعلى هذا كانت الدنيا لم تزل ولا تزال .

محاورة المفضل مع ابن أبي العوجاء

﴿ قال المفضل ﴾ : فلم أملك نفسي غضباً وغيظاً وحنقاً ، فقلت : يا عدو الله ألحدت في دين الله ، وأنكرت الباري جل قدسه الذي خلقك في أحسن تقويم ، وصورك في أتم صورة ، ونقلك في أحوالك حتى بلغ إلى حيث انتهيت .

فلو تفكرت في نفسك وصدقك (٢) لطيف حسك ، لو وجدت دلائل الربوبية وآثار الصنعة فيك قائمة ، وشواهد جل وتقدس في خلقك واضحة ، وبراهينه لك لائحة ، فقال : يا هذا ان كنت من أهل الكلام

(١) الناموس : الشريعة .

(٢) صدقك : أي قال لك صدقاً .

كلناك ، فان ثبتت لك حجة تبعناك ، وان لم تكن منهم فلا كلام لك ،
وان كنت من أصحاب جعفر بن محمد الصادق فما هكذا تخاطبنا ، ولا بمثل
دليلك تجادل فينا ، ولقد سمع من كلامنا أكثر مما سمعت ، فما أخش
في خطابنا ، ولا تعدي في جوابنا وانه للحليم الرزين ، العاقل الرصين ،
لا يعتريه خرق (١) ولا طيش ولا نزق (٢) يسمع كلامنا ، ويصغي اليها
ويتعرف حجتنا ، حتى اذا استفرغنا (٣) ما عندنا ، وظنننا اننا قطعناه ،
دحض حجتنا بكلام يسير ، وخطاب قصير ، يلزمنا به الحجة ، ويقطع
العدر ، ولا نستطيع لجوابه ردا ، فان كنت من أصحابه فخاطبنا بمثل خطابه

سبب املاء الكتاب على المفضل

قال المفضل : فخرجت من المسجد محزوناً مفكراً فيما يلي به الاسلام
وأهله من كفر هذه العصابة وتعطيلها (٤) فدخلت على مولاي عليه السلام
فرآني منكسراً فقال : مالك ؟ فاخبرته بما سمعت من الدهريين (٥) وبما

(١) الخرق : ضعف الرأي وسوء التصرف والحق .

(٢) النزق : هو الطيش والخفة عند الغضب .

(٣) لعله من الافراغ بمعنى الصب . يقال : استفرغ مجهوده ، أي
بذل طاقته .

(٤) التعطيل : مصدر ، وفي الاصطلاح الديني هو انكار صفات
الخالق الباري ، والمعطلة : هم اصحاب مذهب التعطيل .

(٥) واحد الدهري ، وهو الملاحد الذي يزعم بان العالم موجود
أزلاً وأبداً .

رددت عليهما . فقال : يا مفضل لألقين عليك من حكمة الباري جل وعلا
وتقدس اسمه في خلق العالم ، والسباع ، والبهائم ، والطيور ، والهوام ، وكل
ذي روح من الأنعام والنبات (١) والشجرة المثمرة ، وغير ذات الثمر
والحبوب ، والبقول ، المأكول من ذلك وغير المأكول ، ما يعتبر به
المعتبرون ويسكن إلى معرفته المؤمنون : ويتحير فيه الملحدون ، فبكر علي غذا -

(١) العطف التثريكي هنا يكشف عن رأي الامام الصادق في النبات
وان له روحاً ، وبعبارة اخرى ان لديه حساً وحركة . ولم تكتشف
هذه النظرية العلمية إلا في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي ، وأول من
قال بأن في النبات حساً تشله السموم وتميته الكهرباء هو « بيشا » العالم
القيسولوجي الفرنسي المتوفى عام ١٨٢٢ م (عجائب الخلق لزبدان ص ٩٣)
وقد ثبتت هذه النظرية بوجود بعض الأزهار المتفتحة نهاراً والمقفلة ليلاً
(ص ٦٢٥ من كتاب التاريخ الطبيعي) وقام عالم هندي هو (السرجفادس
بوز) بوضع آلة دقيقة تظهر بها حركات النبات ، وما يتأثر به من المؤثرات
الخارجية ، كالمنبهات والمخدرات ، وانشأ هذا العالم معهداً كبيراً في
(كلكتا) لدرس حركات النبات ، وانفعاله بالحر والبرد والظلمة والنور
- فصول في التاريخ الطبيعي للدكتور يعقوب صروف ص ٢٩ - وقد
أصبح من المشهور وجود بعض نباتات تفتش بعض الحشرات والحيوانات
الصغيرة ، وتوجد أيضاً أزهار تضحك وأخرى تبكي - ص ١٠٢٠ من
السنة السادسة والثلاثين لمجلة الهلال - وأمثلة ذلك النبتة المستحية وندى
الشمس وأعجوبة القدر والاباريق ومصيصة الذباب واللقاح وغير هذه .
وفي مقدمات كتابنا (في دنيا النبات) وضعنا فصلاً طريفاً عن طبائع
النبات وحر كاته ، ومنه اقتبسنا هذه الكلمات .

المجلس الاول

« قال المفضل : فانصرفت من عنده فرجاً مسروراً ، وطالت علي تلك الليلة انتظاراً لما وعدني به ، فلما أصبحت غدوت فاستؤذن لي فدخلت ، وقمت بين يديه ، فأمرني بالجلوس ، فجلست ، ثم نهض إلى حجرة كان يخلو فيها ، ونهضت بنهوضه ، فقال : اتبعني ، فتبعته ، فدخلت خلفه ، فجلست وجالست بين يديه ، فقال : يا مفضل كاثني بك وقد طالت عليك هذه الليلة انتظاراً لما وعدتك ، فقلت : أجل يا مولاي فقال : يا مفضل ان الله تعالى كان ولا شيء قبله . وهو باق ولا نهاية له ، فله الحمد على ما ألهمنا ، والشكر على ما منحننا ، فقد خصنا من العلوم بأعلاها ومن المعالي بأسناها ، واصطفانا على جميع الخلق بعلمه ، وجعلنا مهيمنين (١) عليهم بحكمه ، فقلت : يا مولاي أأذن لي أن أكتب ما تشرحه - وكنت أعددت معي ما أكتب فيه - فقال لي : افعل يا مفضل .

﴿ جهل الشكك بأسباب الخلقة ومعانيها ﴾

ان الشكك جهلوا الأسباب والمعاني في الخلقة ، وقصرت افهامهم

(١) جمع مهيم من رهو الامين والمؤمن والشاهد .

عن تأمل الصواب ، والحكمة فيما ذرأ (١) الباري جل قدسه ، وبرأ (٢) من صنوف خلقه في البر ، والبحر ، والسهل ، والوعر ، فخرجوا بقصر علومهم إلى الجحود ، وبضعف بصائرهم إلى التكذيب والعنود ، حتى أنكروا خلق الأشياء ، وادعوا أن تكونها بالاهمال ، لا صنعة فيها ولا تقدير ولا حكمة من مدبر ، ولا صانع ، تعالى الله عما يصفون ، وقاتلتهم الله أنى يؤفكون (٣) فهم في ضلالهم وغيهم وتجبرهم بمنزلة عميان دخلوا داراً قد بنيت أتقن بناء وأحسنه ، وفُرشت بأحسن الفرش واخضره ، وأعد فيها ضروب الأطعمة والأشربة والملابس والمآرب التي يحتاج إليها ولا يستغنى عنها ، ووضع كل شيء من ذلك موضعه على صواب من التقدير ، وحكمة من التدبير ، فجعلوا يترددون فيها يميناً وشمالاً ، ويطوفون بيوتها ادباراً واقبالاً ، محجوبة أبصارهم عنها ، لا يبصرون بنية الدار ، وما أعد فيها وربما عثر بعضهم بالشيء الذي قد وضع موضعه ، وأعد للحاجة إليه ، وهو جاهل للمعنى فيه ولما أعد ولماذا جعل كذلك ؟ فتدمر وتسخط ، وذم الدار وبانيها . فهذه حال هذا الصنف في انكارهم ما أنكروا من أمر الخلقة وثبات الصنعة . فأنهم لما عزبت (٤) أذهانهم عن معرفة الأسباب والعلل في الأشياء ، صاروا يجولون في هذا العالم حيارى ، فلا يفهمون

(١) ذرأ الله الخلق : خلقهم .

(٢) برأه : خلقه من العدم .

(٣) أي ينصرفون عن الحق .

(٤) أي غابت .

ما هو عليه من اتقان خلخته ، وحسن صنعته ، وصواب هيئته . وربما وقف بعضهم على الشيء بحمل سببه ، والأرب (١) فيه ، فيسرع إلى ذمه ووصفه بالاحالة والخطأ ، كالذي أقدمت عليه المانوية (٢) الكفرة ، وجاهرت به المملحة المارقة الفجرة ، وأشباههم من أهل الضلال المعلنين أنفسهم بالجمال (٣) فيحق على من أنعم الله عليه بمعرفته ، وهذا لديه ، ووفقه لتأمل التدبير في صنعة الخلائق ، والوقوف على ما خلقوا له من لطيف التدبير وصواب التقدير ، بالدلالة القائمة الدالة على صانعها ، ان يكثر حمد الله مولاه على ذلك ، ويرغب اليه في الثبات عليه والزيادة منه فانه جل اسمه يقول (لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي

(١) الأرب : - بالفتح - المهارة أو الحاجة .

(٢) أو المانوية : هم أصحاب الحكيم الفارسي ماني بن فاثك الذي ظهر في أيام سابور « ثاني ملوك الدولة الساسانية » ومذهبه مزيج من المجوسية والنصرانية ، وقد تبعه في معتقده خلق كثير ، وبقي قسم كبير منهم في الدور العباسي الاول ثم تسربت آراؤه إلى أوروبا وبقيّة الاقطار الاسيوية وماني هذا كان راهباً بحران ولد حوالي عام ٢١٥ م وقتله بعدئذ بهرام بن هرمز . . انظر في ذلك الملل والنحل للشهرستاني ج ٢ ص ٨١ ومروج الذهب ج ١ ص ١٥٥ ، والفهرست ص ٤٥٦ ، ومعرب الشاهنامة ج ٢ ص ٧١ ، والفرق بين الفرق ص ١٦٢ و ٢٠٧ ، والآثار الباقية للبيروني ص ٢٠٧ ، وتاريخ الفكر العربي لاسماعيل مظهر ص ٣٩ ، وحرية الفكر لسلامة موسى ص ٥٥ .

(٣) أي الشاغلين أنفسهم عن طاعة ربهم بأمور يحكم العقل السليم

باستحالتها .

تهيئة العالم وتأليف أجزائه

يا مفضل أول العبر والدلالة على الباري جل قدسه ، تهية هذا العالم ، وتأليف أجزائه ونظمها (٢) على ما هي عليه ، فانك اذا تأملت العالم بفكرك وخبرته بعقلك ، وجدته كالبيت المبني المعد فيه جميع ما يحتاج اليه عباده ، فالسما مرفوعة كالسقف ، والأرض ممدودة كالسطح ، والنجوم مضيئة (٣) كالصابيح ، والجواهر مخزونة كالذخائر ، وكل شيء فيها لشأنه معد ، والانسان كالملك ذلك البيت ، والتحولات (٤) جميع ما فيه . وضروب النبات مهياة لما ربه ، وصنوف الحيوان مصروفة في مصالحه ومنافعه . ففي هذا دلالة واضحة على ان العالم مخلوق بتقدير وحكمة ونظام وملاءمة ، وان الخالق له واحد ، وهو الذي ألفه ونظمه بعضا إلى بعض جل قدسه وتعالى جلده وكرم وجهه ولا إله غيره تعالى عما يقول الجاحدون ، وجل وعظم عما ينتحلّه الملحدون .

خلق الانسان وتدير الجنين في الرحم

نبداً يا مفضل بذكر خلق الانسان فاعتبر به . . فاول ذلك ما يدبر به الجنين في الرحم ، وهو محجوب في ظلمات ثلاث : ظلمة البطن ، وظلمة

(١) سورة ابراهيم آية ٧ .

(٢) الضمير راجع إلى الاجزاء .

(٣) في نسخة منضودة أي جعل بعضها فوق بعض فهي منضودة .

(٤) من التخويل وهو الاعطاء والتعليك .

الرحم ، وظلمة المشيمة (١) ، حيث لا حيلة عنده في طاب غذاء ، ولا دفع أذى . ولا استجلاب منفعة ، ولا دفع مضرة ، فانه يجري اليه من دم الحيض ما يغذوه كما يغذو الماء النبات . فلا يزال ذلك غذاؤه .

❦ كيفية ولادة الجنين وغذائه وطلوع اسنانه وبلوغه ❦

حتى اذا كمل خلقه واستحكم بدنه وقوى أديمه (٢) على مباشرة الهواء وبصره على ملافاة الضياء هاج الطلق (٣) بامه فازعجه أشد ازعاج واعنقه حتى يولد ، فاذا ولد صرف ذلك الدم الذي كان يغذوه من دم امه إلى ثديها وانقاب الطعم واللون إلى ضرب آخر من الغذاء وهو أشد موافقة للمولود من الدم فيوافيه في وقت حاجته اليه ، فحين يولد قد تلمظ (٤) وحرك شفتيه طلباً للرضاع ، فهو يجد ثدي امه كالأداوتين (٥) المعلقين لحاجته فلا يزال يفتدي باللبن ، ما دام رطب البدن رقيق الامعاء لين الاعضاء . حتى اذا تحرك ، واحتاج إلى غذاء فيه صلابة ليشدد ويقوى بدنه ، طلعت له الطواحن من الاسنان والاضراس (٦) تيمضغ (٧) بها الطعام ، فيلين

(١) المشيمة : غشاء ولد الانسان يخرج معه عند الولادة ، جمعه مشيم ومشايم . (٢) الاديم : الجلد المدبوغ . (٣) « الطلق » بسكون الثاني « وجع الولادة . (٤) تلمظ : اذا أخرج لسانه فمسح به شفتيه .

(٥) الاداوة : - بكسر ففتح - إناء صغير من جلد يتخذ للماء ، جمعه أداوى . (٦) الطواحن : هي الاضراس ، وتطلق الاضراس غالباً على المآخير والاسنان على المقاديم ، كما هو الظاهر هنا ، وان لم يفرق اللغويون بينهما (٧) مضغ الطعام : لأكه بلسانه ❦

عليه . ويسهل له اساغته ، فلا يزال كذلك حتى يدرك ، فاذا أدرك وكان ذكراً طلع الشعر في وجهه ، فكان ذلك علامة الذكر ، وعزَّ الرجل الذي يخرج به من حد الصبا وشبه النساء . وان كانت انثى ينقى وجهها نقياً من الشعر ، لتبقى لها البهجة ، والنضارة التي تحرك الرجل لما فيه دوام النسل وبقاؤه .

اعتبر يا مفضل فيما يدبر به الانسان في هذه الأحوال المختلفة ، هل ترى مثله يمكن أن يكون بالاھال ؟ أفرأيت لو لم يجر اليه ذلك الدم وهو في الرحم ، ألم يكن سينوى ويحف كما يحف النبات إذا فقد الماء ، ولو لم يزعه المخاض عند استجكلمه ألم يكن سيبقى في الرحم كاللوؤد (١) في الأرض ؟ ولو لم يوافقه اللبن مع ولادته ألم يكن سيموت جوعاً أو يغتذي بغذاء لا يلائمه ، ولا يصلح عليه بدنه ، ولو لم تطلع له الاسنان في وقتها ألم يكن سيمتنع عايه مضغ الطعام واساغته . او يقيمه على الرضاع فلا يشتد بدنه ولا يصلح لعمل ؟ ثم كان يشغل امه بنفسه عن تربية غيره من الاولاد ،

❦ حال من لا ينبت في وجهه الشعر وعلة ذلك ❦

ولو لم يخرج الشعر في وجهه في وقته ألم يكن سيبقى في هيئة الصبيان والنساء ، فلا ترى له جلالة ولا وقاراً ؟

قال المفضل فقلت له : يا مولاي فقد رأيت من يبقى على حاله ولا ينبت الشعر في وجهه وان بلغ الكبر ، فقال عليه السلام (ذلك بما » ١ « وأد البنات : دفنها في التراب وهي حية ، كما كان العرب يفعلون ذلك في العهد الجاهلي .

قدّمت أيديكم وإن الله ليس بظلام للعبيد (١) فمن هذا الذي يرصده (٢) حتى يوافيه بكل شيء من هذه المآرب إلا الذي أنشأه خلقاً ، بعد أن لم يكن ، ثم توكل له بمصلحته . بعد أن كان ، فإن كان الإهمال يأتي بمثل هذا التدبير ، فقد يجب أن يكون العمد والتقدير يأتيان بالخطأ والمحال ، لأنهما ضد الإهمال وهذا فظيع من القول وجهل من قائله . لأن الإهمال لا يأتي بالصواب والتضاد لا يأتي بالنظام (٣) تعالى الله عما يقول الملحّدون علواً كبيراً

❦ حال المولود لو ولد فهما عاقلاً وتعليل ذلك ❦

ولو كان المولود يولد فهماً (٤) عاقلاً ، لأنكر العالم عند ولادته ولبقي حيراناً تائه العقل إذا رأى ما لم يعرف ، وورد عليه ما لم يره من اختلاف صور العالم من البهائم والطير ، إلى غير ذلك مما يشاهده ساعة بعد

« ١ » سورة آل عمران آية ١٨٢ .

« ٢ » يرصده : أي يرقبه .

« ٣ » أي إذا لم تكن الأشياء منوطة بأسبابها ، ولم ترتبط الأمور بعلمها ، فكما جاز أن يحصل هذا الترتيب والنظام التام بلا سبب ، فجاز أن يصير التدبير في الأمور سبباً لاختلافها . وهذا خلاف ما يحكم به العقلاء لما يرون من سعيهم في تدبير الأمور وذمهم من يأتي بها على غير تأمل وروية . . ويحتمل أن يكون المراد أن الوجدان يحكم بتضاد آثار الأمور المتضادة ، وربما أمكن إقامة البرهان عليه أيضاً ، فإذا أتى الإهمال بالصواب يجب أن يأتي ضده وهو التدبير بالخطأ ، وهذا أفضع وأشنع .

« من تعليقات البحار »

« ٤ » الفهم : - بفتح فكسر - السريع الفهم :

ساعة ويوماً بعد يوم .

واعتبر ذلك بان من سبي من بلد وهو عاقل ، يكون كالواله الحيران
فلا يسرع إلى تعلم الكلام وقبول الادب ، كما يسرع الذي سبي صغيراً
غير عاقل . ثم لو ولد عاقلاً كان يجد غضاضة (١) اذا رأى نفسه محمولا
مرضعا معصبا بالخرق مسجى (٢) في المهدلانه لا يستغني عن هذا كله لرفقة
بدنه ورطوبته حين يولد ثم كان لا يوجد له من الحلاوة والوقع من القلوب ما
يوجد للطفل فصار يخرج الى الدنيا غيباً (٣) غافلاً عما فيه أدله ، فيلقى
الاشياء بذهن ضعيف ومعرفة ناقصة . ثم لا يزال يتزايد في المعرفة قليلا
قليلا ، وشيئاً بعد شيء ، وحالا بعد حال ، حتى يألف الاشياء ، ويتمرن
ويستمر عليها ، فيخرج من حد التأمل لها والحيرة فيها إلى التصرف ،
والاضطرار إلى المعاش بعقله وحيثته ، وإلى الاعتبار والطاعة والسهو والغفلة
والمعصية ، وفي هذا أيضاً وجوه آخر ، فانه لو كان يولد تام العقل مستقلاً
بنفسه لذهب موضع حلاوة تربية الاولاد ، وما قدر أن يكون للوالدين في
الاشتغال بالولد من المصاحبة وما يوجب التربية للأباء على الابناء من المكافاة
بالبر ، والعطف عليهم ، عند حاجتهم الى ذلك منهم (٤) ثم كان الاولاد

«١» الغضاضة : هي الذلة والمنقصه - جمعها غضايض .

«٢» التسيجية : هي التغطية بثوب يمد على الجسم .

«٣» على فعيل - وهو القليل القطنة .

«٤» أي بان يرى الابناء بآبائهم والعطف عليهم عند حاجة الآباء إلى

ذلك في كبرهم وضعفهم ، وجزاء لما عانوا من الشدائد في سبيل تربية الابناء

لا يألّفون آباهم ولا يألّف الآباء أبناءهم ، لأن الاولاد كانوا يستغنون عن تربية الآباء وحياطتهم ، فيتفرقون عنهم حين يولدون ، فلا يعرف الرجل أباه وامه ، ولا يتمتع من نكاح امه واخته ، وذوات المحارم منه ، اذا كان لا يعرفهن . وأقل ما في ذلك من القباحة ، بل هو أشنع وأعظم وأفظع وأقبح وأبشع ، لو خرج المولود من بطن امه وهو يعقل ، ان يرى (١) منها ما لا يحل له ، ولا يحسن به أن يراه ، أفلا ترى كيف أقيم كل شيء من الحلقة على غاية الصواب ؟ وخلا من الخطأ دقيقة وجليله (٢)

منفعة الاطفال في البكاء

اعرف يا مفضل ما للاطفال في البكاء من المنفعة ، واعلم ان في أدمغة الاطفال رطوبة ، ان بقيت فيها أحدثت عليهم أحداثا جليلة وعظيمة ، من ذهاب البصر وغيره ، والبكاء يسيل تلك الرطوبة من رؤوسهم فيعقبهم ذلك الصحة في أبدانهم والسلامة في أبصارهم . أفليس قد جاز أن يكون الطفل ينتفع بالبكاء والداء لا يعرفان ذلك فهما دائبان (٣) ليسكتانه ويتوخيان (٤) في الامور مرضاته لثلايكي ، وهما لا يعلمان ان البكاء

(١) خبر لقوله : أقل ما في ذلك .

(٢) ان بعض هذا البيان البديع من الامام عن تدرج الانسان في نموه ، ونموه في أوقاته ، كاف في حكم العقل ، بان له صانعا صنعه عن علم وحكمة وتقدير وتدير . « عن كتاب الامام الصادق للشيخ محمد حسين المظفر ج ١ ص ١٧١ .

(٣) الدؤب : الجذ والتعب . «٤» التوخي : التحري والقصد

أصلح له وأجمل عاقبة . فهكذا يجوز أن يكون في كثير من الأشياء منافع لا يعرفها القائلون بالاهمال ولو عرفوا ذلك لم يقضوا على الشيء . انه لا منفعة فيه ، من أجل انهم لا يعرفونه ولا يعلمون السبب فيه ، فان كل ما لا يعرفه المنكرون يعلمه العارفون (١) وكثيراً ما يقصر عنه علم المخلوقين محيط به علم الخالق جل قدسه وعلت كلمته .

فاما ما يسيل من أفواه الأطفال من الريق ، ففي ذلك خروج الرطوبة التي لو بقيت في أبدانهم لأحدثت عليهم الامور العظيمة ، كمن تراه قد غلبت عليه الرطوبة ، فاخرجته إلى حد البله والجنون والتخليط ، إلى غير ذلك من الامراض المتلفة كالفالج (٢) واللقوة (٣) وما اشبهها ، فجعل الله تلك الرطوبة تسيل من أفواههم في صغرهم ، لما لهم في ذلك من الصحة في كبرهم ، فتفضل على خلقه بما جهلوه ، ونظر لهم بما لم يعرفوه ، ولو عرفوا نعمه عليهم لشغلهم ذلك من التماذي في معصيته ، فسبحانه ما أجل نعمته وأسبغها على المستحقين وغيرهم من خلقه ، تعالى عما يقول المبطلون (٤) علواً كبيراً .

«١» اي ان ذلك مما لا يقصر عن ادراكه ذو العلم والفهم .

«٢» الفالج : داء يحدث في أحد شقي البدن ، فيبطل احساسه وحركته .

«٣» اللقوة : - بفتح فسكون - داء يصيب الوجه ، يهوج منه الشدق إلى أحد جانبي العنق ، جمعه لقاء والقاء .

«٤» يقال : أبطل أي جاء بالباطل .

آلات الجماع وهيئتها

انظر الآن يا مفضل كيف جعلت آلات الجماع في الذكر والانثى جميعاً على ما يشاكل ذلك عليه ، فجعل للذكر آلة ناشرة تمتد حتى تصل النطفة (١) إلى الرحم ، اذ كان محتاجاً إلى أن ينفذ ماءه في غيره ، وخلق للانثى وعاءاً قعراً (٢) ليشتمل على الماء من جميعاً . ويحتمل الولد ويتسع له ويصونه حتى يستحكم ، أليس ذلك من تدبير حكيم لطيف سبحانه وتعالى عما يشركون ؟ !

أعضاء البدن وفوائدها كلها

فكر يا مفضل في أعضاء البدن أجمع ، وتدبر كل منها للارب فاليدان للعلاج ، والرجلان للسعي ، والعينان للاهتداء ، والفم للاغتذاء والمعدة للهضم ، والكبد للتخليص ، والمنافذ (٣) لتنفيذ الفضول والأوعية لحملها ، والفرج لاقامة النسل ، وكذلك جميع الأعضاء ، اذا ما تأملت بها واعملت ففكرك فيها ونظرك ، وجدت كل شيء منها قد قدر لشيء على صواب وحكمة .

زعم الطبيعيين وجوابه

قال المفضل فقات : يا مولاي ان قوما يزعمون ان هذا من فعل

(١) النطفة : ماء الرجل أو المرأة ، والجمع نطاف ونطف .

(٢) القعر من كل شيء : عمقه ونهاية أسفله .

(٣) المنافذ هنا بمعنى النوافذ من الانسان ، أي كل سم أو خرق فيه

كالفم والأنف ، والظاهر ان المراد بها هنا محل خروج البول والغائط .

الطبيعة ، فقال عليه السلام : سلمهم عن هذه الطبيعة أهي شيء ، له علم وقدره على مثل هذه الأفعال ، أم ليست كذلك ؟ ؟ فإن أوجبوا لها العلم والقدره فما يمنعهم من اثبات الخالق ، فإن هذه صنعته !! (١) ، وإن زعموا أنها تفعل هذه الأفعال بغير علم ولا عمد ، وكان في أفعالها ما قد تراه من الصواب والحكمة ، علم أن هذا الفعل للخالق الحكيم ، فإن الذي سموه طبيعة هو سنته في خلقه ، الجارية على ما اجراها عليه (٢) .

﴿ عملية الهضم وتكون الدم وجريانه في الشرايين والاوردة ﴾

فكر يا مفضل في وصول الغذاء إلى البدن ، وما فيه من التدبير ، فإن الطعام يصير إلى المعدة فتطبخه ، وتبعث بصفوه إلى السكبد ، في عروق دفاق واشجة (٣) بينهما ، قد جعلت كالمصفي للغذاء ، لكيلا يصل إلى (١) لعل المراد أنهم إذا قالوا بذلك فقد أثبتوا الصانع ، فلم يسمونه بالطبيعة ، وهي ليست بذات علم ولا ارادة ولا قدرة ؟ .

(٢) أي ظاهر بطلان هذا الزعم ، والذي صار سبباً لذهولهم إلى أن الله تعالى أجرى عادته بأن يخلق الأشياء بأسبابها ، فذهبوا إلى استقلال تلك الأسباب في ذلك . وبعبارة أخرى إن سنة الله وعادته قد جرت لحكم كثيرة ، فتكون الأشياء بحسب بادي النظر مستندة إلى غيره تعالى ، ثم يعلم - بعد الاعتبار والتفكير - أن الكل مستند إلى قدرته وتأثيره تعالى ، وإنما هذه الأشياء وسائل وشرائط لذلك ومن هنا تحيروا في الصانع تعالى « من تعليلات البحار »

(٣) الواشجة : مؤنث الواشج اسم فاعل بمعنى المشتبك ، يقال : وشجت العروق والاعصان إذا اشتبكت . والمراد بالواشجة هنا الموصلة أو الواصلة .

السكبد منه شيء فينكأها (١) وذلك ان السكبد رقيقة لا نجتمل العنف ،
ثم ان السكبد تقبله فيستحيل بلطف التدبير دماً ، وينفذه إلى البدن كله
في مجاري مهينة لذلك ، بمنزلة المجارى التي تهياً للماء ليترد في الارض كلها
وينفذ ما يخرج منه من الخبث والفضول الى مفائض (٢) قد أعدت لذلك
فما كان منه من جنس المرة (٣) الصفراء جرى إلى المرارة (٤) وما كان
من جنس السوداء جرى إلى الطحال ، وما كان من البلة والرطوبة جرى
إلى المثانة (٥) .

فتأمل حكمة التدبير في تركيب البدن ، ووضع هذه الأعضاء منه
مواضعها ، واعداد هذه الأوعية فيه ، لتحمل تلك الفضول ، لئلا تنتشر
في البدن فتسقمه وتهلكه ، فتبارك من أحسن التقدير ، وأحكم التدبير ،

(١) نكأ القرحة : قشرها قيل أن تبرأ فندبت .

(٢) المفائض : المجاري ، مأخوذة من فاض الماء ، وفي بعض
النسخ بالغين من غاض الماء غيضاً ، أي نضب وذهب في الارض .
(٣) المرة : - بكسر ففتح - خلط من اخلاط البدن وهو الصفراء
أو السوداء ، جمعه مرار .

(٤) المرارة : هنة شبه كيس لاصقة بالكبد تكون فيها مادة صفراء
هي المرة التي أشار إليها الامام ، جمعها مرائر ومرارات .

(٥) في كلام الامام عليه السلام هنامعان صريحة عن الدورة الدموية
التي اكتشفها العالم الانكليزي وليم هار في « ١٥٧٨ - ١٦٥٧ » بل ان
الامام قد فصل القول - كما ترى هنا - عن جريان الدم في الاوردة
والشرييين ، وان مركزه هو القلب . فنستطيع إذن أن نقول بان الامام
هو المكتشف الاول للدورة الدموية . . .

وله الحمد كما هو أهله ومستحقه .

﴿ أول نشوء الأبدان : تصوير الجنين في الرحم ﴾

قال المفضل فقالت : صف نشوء الأبدان ونموها خلا بعد حال حتى تبلغ التمام والكمال قال عليه السلام : أول ذلك تصوير الجنين في الرحم حيث لا تراه عين ولا تناله يد ، ويدبره حتى يخرج سويا مستوفيا جميع ما فيه قوامه وصلاحه من الاحشاء والجوارح والعوامل ، إلى ما في تركيب أعضائه من العظام ، واللحم ، والشحم ، والعصب ، والمخ ، والعروق والغضاريف (١) . فاذا خرج إلى العالم تراه كيف ينمو بجميع أعضائه وهو ثابت على شكل وهيئة لا تزايد ولا تنقص إلى أن يبلغ أشده ان مد في عمره أو يستوفي مدته قبل ذلك ، هل هذا إلا من لطيف التدبير والحكمة

﴿ اختصاص الانسان بالانتصاب والجلوس دون البهائم ﴾

انظر يا مفضل ما خص به الانسان في خلقه تشرفاً وتفضلاً على البهائم ، فانه خلق ينتصب قائماً ويستوي جالساً ، ليستقبل الاشياء بيديه وجوارحه ، ويمكنه العلاج والعمل بهما . فلو كان مكبواً على وجهه كذوات الاربع ، لما استطاع ان يعمل شيئاً من الاعمال .

﴿ تخصص الانسان بالحواس وتشربها دون غيره ﴾

انظر الآن يا مفضل إلى هذه الحواس (٢) التي خص بها الانسان

(١) الغضاريف : جمع غضروف وهو كل عظم رخص لين .

(٢) هي الاعضاء التي تؤمن مناسباتنا مع المحيط الخارجي ، وهي

خمسة أعضاء : اللسان والذوق والشم والبصر والسمع .

في خلقه ، وشرف بها على غيره ، كيف جعلت العينان في الرأس ، كالصايح فوق المنارة ؟ ليتمكن من مطالعة الاشياء ، ولم تجعل في الاعضاء التي تحتها ، كاليدين والرجلين ، فتعرضها الآفات وبصبيها من مباشرة العمل والحركة ، ما يعالها ويؤثر فيها وينقص منها ، ولا في الاعضاء التي وسط البدن ، كالبطن ، والظير ، فيعسر قلبها ، واطلاعها نحو الاشياء .

﴿ الحواس الخمس واعمالها وما في ذلك من الاسرار ﴾

فلما لم يكن لها في شيء من هذه الاعضاء موضع ، كان الرأس أسنى المواضع للحواس ، وهو بمنزلة الصومعة لها . فجعل الحواس خمسا تلقي خمسا لكي لا يفوتها شيء من المحسوسات . . فخلق البصر ليدرك الالوان فلو كانت الالوان ولم يكن بصر يدركها : لم تكن فيها منفعة . وخلق السمع ليدرك الاصوات ، فلو كانت الاصوات ولم يكن سمع يدركها ، لم يكن فيها ارب ، وكذلك سائر الحواس ثم هذا يرجع متكافيا ، فلو كان بصر ولم تكن الالوان ، لما كان للبصر معنى ، ولو كان سمع ولم تكن أصوات ، لم يكن للسمع موضع .

﴿ تقدير الحواس بعضها يلقي بعضها ﴾

فانظر كيف قدر بعضها يلقي بعضها ، فجعل لكل حاسة محسوسا (١) يعمل فيه ، ولكل محسوس (٢) حاسة تدركه ، ومع هذا فقد جعلت

(١-٢) اهل الاصل في كلمة محسوس هنا هو « حس » ولا ثاني كلمة محسوس هنا ، لان حس بمعنى شعر وعلم فعل لازم ، ومن البدهي عدم جواز صيغة اسم المفعول من الفعل اللازم ، إلا اذا عدي بحرف -

أشياء متوسطة بين الحواس والمحسوسات ، لا تتم الحواس إلا بها ، كمثل الضياء والهواء ، فانه لو لم يكن ضياء يظهر اللون للبصر ، لم يكن البصر يدرك اللون ، ولو لم يكن هواء يؤدي الصوت إلى السمع ، لم يكن السمع يدرك الصوت . فهل يخفى على من صح نظره وأعمل فكره ، ان مثل هذا الذي وصفت من تهية الحواس والمحسوسات بعضها يلقي بعضا ، وتهية أشياء اخر بها تتم الحواس ، لا يكون إلا بعمل وتقدير من لطيف خير ؟ .

فيمن عدم البصر والسمع والعقل وما في ذلك من الموعظة

فكر يا مفضل فimen عدم البصر من الناس وما يناله من الخلل في أموره ، فانه لا يعرف موضع قدميه ، ولا يبصر ما بين يديه ، فلا يفرق بين الألوان ، وبين المنظر الحسن والقيح ، ولا يرى حفرة ان هجم عليها ولا عدواً ان أهوى اليه بسيف ، ولا يكون له سبيل إلى أن يعمل شيئاً من هذه الصناعات مثل الكتابة والتجارة والصياغة ، حتى انه لو لا نفاذ ذهنه لكان بمنزلة الحجر الملقى .

وكذلك من عدم السمع ، يختل في أمور كثيرة ، فانه يفقد روح المخاطبة والمحاوره ، ويعدم لذة الأصوات والاحوار المشجية والمطربة ، وتعظم المؤنة على الناس في محاورته ، حتى يتبرموا به ، ولا يسمع شيئاً من أخبار الناس وأحاديثهم ، حتى يكون كالغائب وهو شاهد ، أو كالليت وهو حي . . .

- الجر او جاء مع المصدر أو الظرف ، ويأتي فعل حس متعديا بغير هذا المعنى ، فيقال : حسه اذا قتله واستأصله .

فاما من من عدم العقل ، فانه يلحق بمنزلة البهائم ، بل يجهل كثيراً مما تهتدى اليه البهائم ، أفلا ترى كيف صارت الجوارح والعقل ، وسائر الخلال (١) التي بها صلاح الانسان ، والتي لو فقد منها شيئاً لعظم ما يناله في ذلك من الخلل ، يوافي (٢) خلقه على التام حتى لا يفقد شيئاً منها ، فلم كان كذلك ؟ إلا انه خلق بعلم وتقدير ،

قال المفضل فقلت : فلم صار بعض الناس يفقد شيئاً من هذه الجوارح فيناله من ذلك مثل ما وصفته يا مولاي ؟ قال عليه السلام : ذلك للتأديب والموعظة لمن يحل ذلك به وبغيره بسببه كما يؤدب الملوك الناس للتكامل والموعظة ، فلا ينكر ذلك عليهم ، بل يحمد من رأيهم ، ويتصوب من تديبرهم . ثم ان للذين تنزل بهم هذه البلايا من الثواب بعد الموت - ان شكروا وأنابوا - ما يستصغرون معه ما ينالهم منها ، حتى انهم لو خيروا بعد الموت لاختاروا ان يردوا إلى البلايا ، ليزدادوا من الثواب

❦ الاعضاء المخلوقة افراداً وازواجاً وكيفية ذلك ❦

فكر يا مفضل في الاعضاء التي خلقت افراداً وازواجاً ، وما في ذلك من الحكمة والتقدير ، والصواب في التدبير .

فالرأس مما خلق فرداً ، ولم يكن للانسان صلاح في أن يكون له أكثر من واحد . ألا ترى انه لو اضيف إلى رأس الانسان رأس آخر

(١) الخلال : جمع خلة وهي الخصلة .

(٢) يوافي خبر الى صارت المتقدمة قبل سطرين .

لكان ثقلا عليه ، من غير حاجة اليه ، لان الحواس التي يحتاج اليها مجتمعة في رأس واحد . ثم كان الانسان ينقسم قسمين لو كان له رأسان ، فان تكلم من احدهما كان الآخر معطلا لا ارب فيه ولا حاجة اليه ، وان تكلم منهما جميعا بكلام واحد كان احدهما فضلا لا يحتاج اليه ، وان تكلم باحدهما بغير الذي تكلم به من الآخر ، لم يدر السامع باي ذلك ياخذ ، واشباه هذا من الاخلاط . . .

واليدان مما خلق ازواجا ، ولم يكن للانسان خير في ان يكون له يد واحدة ، لأن ذلك كان يخل به (١) فيما يحتاج الى معالجته من الاشياء ألا ترى ان النجار والبناء لو شلت إحدى يديه لا يستطيع ان يعالج صناعته ، وان تكلف ذلك لم يحكمه ، ولم يبلغ منه ما يبلغه اذا كانت يدها تتعاونان على العمل . . ؟

❦ الصوت والكلام وتهيئة آلاته في الانسان وعمل كل منها ❦
أطل الفكر يا مفضل في الصوت والكلام وتهيئة آلاته في الانسان فالحنجرة كالانبوبة لخروج الصوت ، واللسان والشفطان والاسنان لصياغة الحروف والنغم . ألا ترى ان من سقطت اسنانه لم يقم اللسان ، ومن سقطت شفته لم يصح الفاء ، ومن ثقل لسانه لم يفصح الراء ، واشبه (٢) شيء بذلك المزمار (٣) الاعظم ، فالحنجرة تشبه قصبه المزمار ، والرئة تشبه

(١) يقال : اخل بالشئ اذا قصر فيه .

(٢) يظهر ان الجملة ناقصة وتكملتها : « مخرج الصوت اشبه شيء »

(٣) المزمار : الآلة التي يزمر فيها جميعها مزامير .

الزق (١) الذي ينفخ فيه لتدخل الريح ، والعضلات التي تقبض على الرئة ليخرج الصوت كالاصابع التي تقبض على الزق حتى تجري الريح في المزامير والشفتان والاسنان التي تصوغ للصوت حروفاً ونملاً كالاصابع التي تختلف في فم المزامير فتصوغ صفيحه الحانا غير انه وان كان مخرج الصوت يشبه المزامير بالالة والتعريف فان المزامير - في الحقيقة - هو المشبه بمخرج الصوت

﴿ ما في الاعضاء من المآرب الاخرى ﴾

قد أنبأتك بما في الاعضاء من الغناء في صنعة الكلام واقامة الحروف ، وفيها مع الذي ذكرت لك مآرب اخرى . فالحنجرة ليسلك فيها هذا النسيم إلى الرئة ، فتروح على الفؤاد بالنفس الدائم المتتابع ، الذي لو حبس شيئاً يسيراً هلك الانسان ، وباللسان تذاق الطعوم ، فيميز بينها ، ويعرف كل واحد منها حلوها من مرها وحامضها من مرها ومالحها من عذبتها وطيبها من خبيثها ، وفيه مع ذلك معونة على اساعة الطعام والشراب والاسنان لمضغ الطعام حتى يلين وتسهل اساغته ، وهي مع ذلك كالسند للشفتين تمسكهما وتدعمهما من داخل الفم واعتير ذلك فانك ترى من سقطت أسنانه مسترخي الشفة ومضطربها ، وبالشفتين يترشف (٢) الشراب ، حتى يكون الذي يصل إلى الجوف منه بقصد وقدر ، لا يشج (٣) ثجاً ، فيفص به الشارب ، أو ينكأ (٤) في الجوف ، ثم هي (٥) بعد ذلك كالنباب

(١) المراد بالزق هنا الجلد الذي يستعمل في المزامير .

(٢) ترشف الشراب اي بالغ في مصه . (٣) نج يشج ثجاً : اساله .

(٤) لعله اراد انه يقع في غير ما حاجة . (٥) هي الماء سال لا يثنيه شيء

الطابق على القم يفتحها الانسان اذا شاء ويطبقها اذا شاء ، وفيما وصفنا من هذا بيان .

ان كل واحد من هذه الاعضاء يتصرف وينقسم إلى وجوه من المنافع كما تتصرف الاداة الواحدة في اعمال شتى ، وذلك كالقأس تستعمل في النجارة والحفر وغيرهما من الاعمال .

﴿ الدماغ وأغشيته والجمجمة وفائدتها ﴾

ولو رأيت الدماغ اذا كشف عنه لرأيت قد لف بحجب بعضها فوق بعض لتصونه من الاعراض ، وتمسكه فلا يضطرب . ولرأيت عليه الجمجمة بمنزلة البيضة ، كما نقيه (١) هدء الصدمة ، والصكة التي ربما وقعت في الرأس ثم قد جلات الجمجمة بالشعر ، حتى صارت بمنزلة الفرو للرأس يستره من شدة الحر والبرد ، فمن حصن الدماغ هذا التحصين ، إلا الذي خلقه وجعله ينبوع الحس ، والمستحق للحیطة والصيانة ، بعلم منزلته من البدن ، وارتفاع درجته ، وخطيره مرتبته .

﴿ الجفن وأشفاره ﴾

تأمل يا مفضل : الجفن على العين كيف جعل كالغشاء والاشفار (٢) كالاشراح (٣) ، وأولجها (٤) في هذا الغار ، واطلمها بالحجاب ، وما عليه من الشعر .

(١) في نسخة يفته بدلا عن تقيه ، ويفته من الفت وهو الكسر .

(٢) الاشفار جمع شفر وهو أصل منبت الشعر في الجفن .

(٣) الاشراح : العرى . (٤) أولجها : أدخلها .

﴿ الفؤاد ومدرعته ﴾

يا مفضل من غيب الفؤاد في جوف الصدر ، وكساه المدرعة (١)
التي هي غشاؤه ، وحصنه بالجوانح وما عليها من اللحم والعصب ، لتلاصق
اليه ما ينكأه (٢) .

﴿ الحلق والمرى ﴾

من جعل في الحلق منفذين أحدهما لخرج الصوت وهو الحلقوم
المتصل بالرئة ، والآخر منفذا للغذاء ، وهو المري (٣) المتصل بالمعدة الموصل
لغذاء اليها ، وجعل على الحلقوم طبقة يمنع الطعام أن يصل الى الرئة فيقتل
﴿ الرئة وعملها . . اشراج منافذ البول والغائط ﴾

من جعل الرئة مروحة الفؤاد لا تقتر ولا تختل لكيلا تتحير (٤)
الحرارة في الفؤاد ، فتؤدي إلى التلف . ؟ من جعل لمنافذ البول والغائط
أشراجا (٥) تضبطهما ، لتلا يجريا جريانا دائما ، فينسد على الانسان عيشه

(١) كأن المراد بالمدرعة هنا ثوب الحديد فلمدرعة في الاصل جبة
مشقوقة المقدم أو كما عند اليهود ثوب من كتان كان يلبس عظيم احبارهم
ولكن الذي يريده الامام من حد قولهم درع اذا لبس درع الحديد .
(٢) نكأه : جرحه وآذاه . (٣) المري : هو العرق الذي يمتلى
ويدر باللبن جمعة مرايا ، وقد أبان الامام وظيفة المرى وعمله بتعبير لطيف
(٤) تحيرت الحرارة : ترددت كأنها لا تدري كيف تجري فتجمعت
وفي نسخة تتحيز وليس لها معنى مستقيم .

(٥) الاشراج جمع شرج وهو في الاصل انشقاق في القوس ، وقد
استعار الامام منها معنى لمنافذ البول والغائط .

فكم عسى ان يحصي المحصي من هذا ، بل الذي لا يحصى منه ولا يعلمه
الناس أكثر ؟ .

﴿ المعدة عصبانية والسكبد ﴾

من جعل المعدة عصبانية شديدة وقدرها الهضم الطعام الغليظ ؟ ومن
جعل السكبد رقيقة ناعمة لقبول الصنف (١) اللطيف من الغذاء ، ولتهضم
وتعمل ما هو اللطيف من عمل المعدة إلا الله القادر ؟ أتري الإهمال يأتي
بشيء من ذلك ؟ كلا ! بل هو تدبير مدبر حكيم قادر ، عليم بالاشياء قبل
خلقه إياها ، لا يعجزه شيء وهو اللطيف الخبير .

﴿ المخ والدم والاذن والظفار والاليتين والفخذين ﴾

فكر يا مفضل لم صار المخ الرقيق محصنا في انابيب العظام ؟ هل
ذلك إلا ليحفظه ويصونه . ؟ لم صار الدم السائل محصوراً في العروق بمنزلة
الماء في الظروف (٢) إلا لتضبطه فلا يفيض ؟ لم صارت الازفجار على
اطراف الاصابع إلا وقاية لها ومعونة على العمل ؟ لم صار داخل الاليتين
ملتوي كهيئة اللوالب (٣) إلا ليترد فيه الصوت ، حتى ينتهي الى السمع ،
وليكسر حمة الريح ، فلا ينكأ في السمع ؟ لم جعل الانسان على فخذه واليتيه
هذا اللحم ، إلا ليقية من الارض ، فلا يتألم من الجلوس عليها ، كما يألم

(١) الصنف من كل شيء : خالصه وخياره .

(٢) الظروف جمع ظرف وهو كل ما يستقر فيه غيره ويغلب استعماله

للقرية والسقاء . (٣) اللوالب : آلة من خشب أو حديد ذات محور
ذي دوائر ناتئة وهو الذكر او داخلية وهو الانثى جمعه لوالب .

من نحل جسمه وقل لحمه ، اذا لم يكن بينه وبين الارض حائل يقيه صلابتها
 (الانسان ذكروا شي وتناسله وآلات العمل وحاجته وحيلته والزامه بالحاجة)
 من جعل الانسان ذكراً واثى إلا من خلقه متناسلاً ؟ ومن خلقه
 متناسلاً إلا من خلقه مؤملاً ؟ ومن أعطاه آلات العمل إلا من خلقه عاملاً ؟
 ومن خلقه عاملاً إلا من جعله محتاجاً ؟ ومن جعله محتاجاً إلا من ضربه
 بالحاجة ؟ (١) ومن ضربه بالحاجة إلا من توكل بتقويمه ؟ (٢) ومن خصه
 بالفهم إلا من أوجب الجزاء ؟ ومن وهب له الحيلة إلا من ملكه الحول (٣)
 ومن ملكه الحول إلا من ألزمه الحاجة ؟ من يكفيه ما لا تبغفه حيلته إلا
 من لم يبلغ مدى شكره .

فكر وتدبر ما وصفته . هل تجد الاهمال يأتي على مثل هذا النظام
 والترتيب تبارك الله تعالى عما يصفون .

﴿ الفؤاد وثقبه المتصلة بالرئة ﴾

اصف لك الآن يا مفضل الفؤاد . . اعلم ان فيه ثقباً موجهة نحو
 الثقب التي في الرئة تروح عن الفؤاد ، حتى لو اختلفت تلك الثقب ونزائل
 بعضها عن بعض ، لما وصل الروح الى الفؤاد ، ولملك الانسان أفيستجيز
 ذو فكرة وروية ان يزعم ان مثل هذا يكون بالاهمال ، ولا يجد شاهداً

(١) أي سبب له اسباب الاحتياج او خلقه بحيث يحتاج .

(٢) أي تكفل برفع حاجته وتقويم اوده .

(٣) الحول مصدر بمعنى القدرة والقوة على التصرف وجودة النظر

والحدق .

من نفسه يزعه (١) عن هذا القول ؟ لو رأيت فرداً من مصراعين فيه كلوب (٢) اكننت تتوهم انه جعل كذلك بلا معنى ؟ بل كنت تعلم ضرورة انه مصنوع يلتقي فرداً آخر ، فيبرزه ليكون في اجتماعهما ضرب من المصلحة . وهكذا تجد الذكر من الحيوان ، كانه فرد من زوج مهياً من فرد انثى ، فيلتقيان لما فيه من دوام النسل وبقائه ، فتباً (٣) وخيبة وتعساً لمنتحلي الفلسفة كيف عميت قلوبهم عن هذه الحلقة العجيبة حتى انكروا التدبير والعمد فيها ؟ .

﴿ فرج الرجل والحكمة فيه ﴾

لو كان فرج الرجل مسترخياً ، كيف كان يصل الى قعر الرحم ، حتى يفرغ النطفة فيه ؟ ولو كان منعصاً (٤) ابداً كيف كان الرجل ينقب في الفراش ، او يمشي بين الناس وشيء شاخص أمامه ، ثم يكون في ذلك مع قبح المنظر . تحريك الشهوة في كل وقت من الرجال والنساء جميعاً ، فقدر الله جل اسمه أن يكون أكثر ذلك لا يبدو للبصر في كل وقت ، ولا يكون على الرجال منه مؤنة ، بل جعل فيه قوة الانتصاب وقت الحاجة إلى ذلك ، لما قدر أن يكون فيه من دوام النسل وبقائه .

(١) يزعه : يكفه ويمنعه . (٢) الكلوب - بفتح الاول وتشديد الثاني - المهاز أو حديدة معطوفة الرأس يجر بها الحجر أو خشبة في رأسها عتاقة منها أو من حديد والجمع كلاليب . (٣) تباً لفلان تنصبه على المصدر بضمهم فعل أي الزمه الله هلاكاً وخسراناً .

(٤) المنعص كأنه مأخوذ من العص وهو القرن يريد انه صلب شديد

﴿ منفذ الغائط ووصفه ﴾

اعتبر الآن يا مفضل بعظم النعمة على الانسان في مطعمه ومشربه وتسبيل خروج الاذى . أليس من حسن التقدير في بناء الدار أن يكون الخلاء في استر موضع منها ، فكذلك جعل الله سبحانه المنفذ المهيأ للخلاء من الانسان في استر موضع منه ، فلم يجعله بارزا من خلفه ، ولا ناشزا من بين يديه ، بل هو مغيب في موضع غامض من البدن ، مستور محجوب ، يلتقي عليه الفخذان وتحجبه الأليتان بما عليهما من اللحم فتواريانه ، فإذا احتاج الانسان الى الخلاء ، وجلس تلك الجلسة التي (١) ذلك المنفذ منه منصبا ، مهيأ لانحدار الثفل (٢) . فتبارك من تظاهرت آلاؤه ولا تحصى نعمائه

﴿ الطواحن من اسنان الانسان ﴾

فذكر يا مفضل في هذه الطواحن (٣) التي جعلت للانسان ، فبعضها حداد (٤) لقطع الطعام وقرضه ، وبعضها عراض (٥) لمضغه ورضه ، فلم ينقص واحد من الصفتين ، اذ كان محتاجا اليهما جميعا .

﴿ الشعر والاذفار وفائدة قصها ﴾

تأمل واعتبر بحسن التدبير في خلق الشعر والاذفار ، فانها لما

(١) الفى : وجد (٢) الثفل - بالضم - ما يستقر في أسفل الشيء من كدرة . (٣) الطواحن جمع طاحن وهو الضرس . (٤) حداد أي قاطعة . (٥) عراض جمع عربض ضد طويل ، وربما أريد به المعارضة وهي السن التي في عرض الفم أو ما يبدو من الفم عند الضحك .

كانا مما يطول ويكثر ، حتى يحتاج إلى تخفيفه اولاً فأولاً ، جملاً عديماً
الحسن ، لئلا يؤلم الانسان الاخذ منها ، ولو كان قص الشعر وتقليم الاظفار
مما يوجد له ألم ، وقع من ذلك بين مكروهين ، إما أن يدع كل واحد
منهما حتى يطول فيثقل عليه ، وإما أن يخففه بوجع وألم يتألم منه .

قال المفضل فقلت : فلم لم يجعل ذلك خلقاً لا تزيد فيحتاج الانسان
إلى التقصان منه ، فقال عليه السلام : ان الله تبارك اسمه في ذلك على العبد
نعماً لا يعرفها ، فيحمده عليها . . اعلم ان آلام البدن وادواؤه (١) تخرج
بمخرج الشعر في مسامه (٢) وبمخرج الاظفار من اناملها ، ولذلك أمر
الانسان بالنورة ، وحلق الرأس ، وقص الاظفار ، في كل اسبوع ليسرع
الشعر والاظفار في النبات ، فتخرج الآلام والادواء بمخرجها (٣) . . .
واذا طالاً تحيراً ، وقل خروجها ، فاحتبست الآلام والادواء في البدن
فحدثت عللاً وأوجاعاً ومنع - مع ذلك - الشعر من المواضع التي تضر
بالانسان ، وتحدث عليه الفساد والضرر لو نبت الشعر في العين ، ألم يكن
سيمى البصر ؟ ولو نبت في الفم ، ألم يكن سينفص على الانسان طعامه
وشربه ؟ ولو نبت في باطن السكف ، ألم يكن سيموقه عن صحة اللبس

(١) الادواء جمع داء وهو المرض والعلة . (٢) المسام من الجلد
نقبه ومنافذه كنبات الشعر ، ومنهم من يجعلها جمع سم اي الثقب مثل
محاسن وحسن .

(٣) يؤيد هذا الرأي علم الطب الحديث ، وان كانت نظرية التطور
تقول بان الشعر والاظفار من الزوائد الحيوانية الاولى التي لم يعد لها
نفع ولا فائدة :

وبعض الاعمال ؟ ولو ثبت في فرج المرأة وعلى ذكر الرجل ، ألم يكن سيفسد عليهما لذة الجماع ؟ . . فانظر كيف تنكب (١) الشعر عن هذه المواضع ، لما في ذلك من المصلحة ، ثم ليس هذا في الانسان فقط ، بل تجده في البهائم والسيباع وسائر المتناسلات : فانك ترى اجسامها مجلمة بالشعر وترى هذه المواضع خالية منه لهذا السبب بعينه . . فتأمل الحلقة كيف تتركز (٢) وجوه الخطأ والمضرة ، وتأتي بالصواب والمنفعة .

﴿ شعر الركب والابطين ﴾

ان المنانية (٣) واشباههم ، حين اجهدوا في عيب الحلقة والعمد (٤) عابو الشعر الثابت على الركب والابطين ، ولم يعلموا ان ذلك من رطوبة تنصب إلى هذه المواضع ، فينبت فيها الشعر كما ينبت العشب في مستنقع المياه أفلا ترى الى هذه المواضع استر واهياً لقبول تلك الفضلة من غيرها ؟ . . ثم ان هذه تعد مما يحمل الانسان من مؤنة هذا البدن وتكاليفه ، لما له في ذلك من المصلحة ، فان اهتمامه بتنظيف بدنه . واخذ ما يعلوه من الشعر ، مما يكسر به شرته (٥) ويكف عاديته (٦) ويشغله عن بعض ما يخرج به اليه

(١) تنكب عنه : عدل عنه وتجنبه .

(٢) احترز منه وتحرز أي تحفظه وتوقاه كأنه جعل نفسه في حرز منه

(٣) المنانية أو المانوية سبق الكلام عنها في أوائل الكتاب .

(٤) يقال فعله عمداً وعن عمد أي قصداً لا عن طريق الصدفة .

(٥) الشرّة - بكسر فتشديد - الحدة والنشاط أو الشر .

(٦) العادية : الحدة والغضب أو الشغل أو الظلم والشر .

الفراغ من الأشر (١) والبطالة .

﴿ الريق وما فيه من المنفعة ﴾

تأمل الريق وما فيه من المنفعة ، فانه جعل يجري جرياناً دائماً إلى
الفم ، ليل الحلق واللاهوات (٢) فلا يجف ، فان هذه المواضع لو جعلت
كذلك ، كان فيه هلاك الانسان ثم كان لا يستطيع أن يسيغ (٣) طعاماً ،
اذا لم يكن في الفم بلة تنفذه ، تشهد بذلك المشاهدة ، واعلم ان الرطوبة مطية
الغذاء . وقد تجري من هذه البلة إلى مواضع اخر من المرة (٤) فيكون في
ذلك صلاح تام للانسان ، ولو بدست المرة لهلك الانسان .

﴿ محاذير كون بطن الانسان كهيئة القباء ﴾

ولقد قال قوم من جهة المتكلمين وضعفة المتفلسفين بقلة التمييز
وقصور العلم : لو كان بطن الانسان كهيئة القباء (٥) يفتحه الطيب اذا شاء
فيعاین ما فيه ، ويدخل يده فيعالج ما أراد علاجه . ألم يكن أصح من أن
يكون مُصمماً (٦) محجوباً عن البصر واليد ، لا يعرف ما فيه الا بدلالات
غامضة ، كمثل النظر إلى البول ، وجس العرق ، وما أشبه ذلك مما يكثر

(١) الأشر - بفتحين - البطر وشدة الفرح والجمع أشزون وإشارى

(٢) اللاهوات جمع لهاة وهي اللحمة المشرفة على الحلق في أقصى سقف

الفم . (٣) اساغ الطعام يسيغه سيغا : سهل مطعمه .

(٤) المرة - بالكسر - خلط من اخلاط البدن وهو الصفراء . أو

السوداء والجمع مزار .

(٥) القباء - بالفتح - ثوب يلبس فوق الثياب جمعه أقبية .

(٦) مصمت اسم معقول الذي لا جوف له .

فيه الغلط والشبهة ، حتى ربما كان ذلك سبباً للموت . فلو علم هؤلاء الجبهة ان هذا لو كان هكذا ، كان اول ما فيه أن كان يسقط عن الانسان الوجل من الأمراض والموت . وكان يستشعر البقاء ويفتر بالسلامة فيخرجه ذلك الى العتو (١) والأشر (٢) . ثم كانت الرطوبات التي في البطن ترشح وتحلب (٣) فيفسد على الانسان مقعده ومركده وثياب بدلتة وزينته ، بل كان يفسد عليه عيشه ، ثم ان المعدة والكبد والفؤاد انما تفعل أفعالها بالحرارة الغريزية التي جعلها الله محتبسة في الجوف ، فلو كان في البطن فرج يفتح حتى يصل البصر الى رؤيته ، واليد الى علاجه ، لوصل برد الهواء الى الجوف ، فمازج الحرارة الغريزية ، وبطل عمل الأحشاء ، فكان في ذلك هلاك الانسان ، أفلا ترى ان كلما تذهب اليه الأوهام - سوى ما جاءت به الخلقه - خطأ وخطال (٤) .

﴿ أفعال الانسان في الطعم والنوم والجماع وشرح ذلك ﴾

فذكر يامفضل في الافعال التي جعلت في الانسان من الطعم والنوم والجماع وما دبر فيها . . فانه جعل لكل واحد منها في الطباع نفسه محرك يقتضيه ويستحث به ، فالجوع يقتضي الطعم الذي فيه راحة البدن وقوامه

-
- (١) العتو : الاستكبار وتجاوز الحد . (٢) الأشر - بفتح الحاء - من أشر أي بطر ومرح فهو أشر وأشران وجمعه اشرون وأشارى .
 (٢) ترشح وتحلب بمعنى واحد وهو السيلان .
 (٤) الخطل : المنطق الفاسد المضطرب .

والسكرى (١) يقتضي النوم الذي فيه راحة البدن واجسام (٢) قواه ،
والشبق (٣) يقتضي الجماع الذي فيه دوام النسل وبقاؤه . . . ولو كان
الانسان انما يصير الى أكل الطعام ، لمعرفته بحاجة بدنه اليه ، ولم يجد من
طباعه شيئاً يضطره الى ذلك ، كان خليفاً ان يتوانى (٤) عنه احياناً بالثقل
والسكل ، حتى ينحل بدنه فيهلك ، كما يحتاج الواحد الى الدواء لشيء مما
يصلح به بدنه فيدافع به حتى يؤديه ذلك الى المرض والموت ، وكذلك لو
كان انما يصير الى النوم بالفكر في حاجته الى راحة البدن واجسام قواه كان
عسى ان يتأقّل عن ذلك ، فيدفعه حتى ينهك بدنه . ولو كان انما يتحرك
للجماع بالرغبة في الولد كان غير بعيد ان يفترعه ، حتى يقل النسل او ينقطع
فان من الناس من لا يرغب في الولد ، ولا يحفل (٥) به .

فانظر كيف جعل لكل واحد من هذه الأفعال التي بها قوام
الانسان وصلاحه ، محرّكاً من نفس الطبع يحركه لذلك ، ويحدوه عليه .
واعلم ان في الانسان قوى اربعة قوة جاذبة تقبل الغذاء وتورده على
المعدة ، وقوة ماسكة تحبس الطعام ، حتى تفعل فيه الطبيعة فعلها ، وقوة
هاضمة ، وهي التي تطبخه ، وتستخرج صفوه ، وتبثه في البدن ، وقوة دافعة
تدفعه وتحدّر الثفل (٦) الفاضل ، بعد اخذ الهاضمة حاجتها . ففكر في

(١) السكرى : النعاس . (٢) الاجسام من الجمام وهو الراحة
يقال : جم الفرس اذا ذهب اعياءه . (٣) الشبق بفتح السين شدة الشهوة
(٤) يتوانى : يقصر . (٥) لا يحفل : لا يبالي .
(٦) الثفل هو ما يستقر في اسفل الشيء من كدرة .

تقدير هذه القوى الأربع التي في البدن وافعالها وتقديرها للحاجة اليها
والارب فيها ، وما في ذلك من التدبير والحكمة ، فلو لا الجاذبة كيف
كان يتحرك الانسان لطلب الغذاء الذي به قوام البدن ؟ ولو لا الماسكة
كيف كان يلبث الطعام في الجوف حتى تهضمه المعدة ؟ ولو لا الهاضمة كيف
كان ينطبخ (١) حتى يخلص منه الصفو الذي يغذو البدن ويسد خلاه (٢)
ولو لا الدافعة كيف كان الثفل الذي تخلفه الهاضمة يندفع ويخرج أولاً
فاًولاً ؟ أفلا ترى كيف وكل الله سبحانه - بلطف صنعه وحسن
تقديره - هذه القوى بالبدن ، والقيام بما فيه صلاحه . . وسأمثل لك في
ذلك مثالا : ان البدن بمنزلة دار الملك ، له فيها حشم (٣) وصبية وقوام (٤)
موكلون بالدار ، فواحد لقضاء حوائج الحشم وإيرادها (٥) عليهم ، وآخر
لقبض ما يرد وخزنه ، الى أن يعالج ويببأ ، وآخر لعلاج ذلك وتهيئته
وتفريقه ، وآخر لتنظيف ما في الدار من الاقدار وإخراجه منها ، فللك
في هذا هو الخلاق الحكيم ملك العالمين ، والدار هي البدن ، والحشم هم (٦)
الاعضاء ، والقوام هم (٧) هذه القوى الأربع . ولعلك ترى ذكرنا هذه

-
- (١) انطبخ مطاوع طبخ تقول طبخ اللحم اي انضجه .
(٢) الخل جمع خلة - بالفتح - وهي الثقبه (٣) الحشم : الخدم
والعيال أو من يفضون له أو يفض لهم من اهل وعبيد وجيرة .
(٤) لغل القوام جمع قيم إذ القيم على الامر هو المتولى عليه .
(٥) أورده إيراداً أي احضره المورد ثم استعمل لمطلق الاحضار .
(٦ - ٧) في بعض النسخ هي .

القوى الاربع وافعالها - بعد الذي وصفت - فضلاً وتزداداً (١) وليس ما ذكرته من هذه القوى على الجهة التي ذكرت في كتب الاطباء ولا قولنا فيه كقولهم ، لانهم ذكروها على ما يحتاج اليه في صناعة الطب وتصحيح الابدان ، وذكرناها على ما يحتاج في صلاح الدين وشفاء النفوس من الغي (٢) كالذي أوصته بالوصف الشافي والمثل المضروب من التدبير والحكمة فيها

﴿ قوى النفس وموقعها من الانسان ﴾

تأمل يا مفضل هذه القوى التي في النفس ، وموقعها من الانسان ، أعني الفكر والوهم والعقل والحفظ وغير ذلك ، أفرأيت لو نقص الانسان من هذه الخلال (٣) الحفظ وحده ، كيف كانت تكون حاله ، وكمن خال كان يدخل عليه في اموره ومعاشه وتجاربه ، اذا لم يحفظ ما له وما عليه وما اخذوه وما اعطى وما رأى وما سمع وما قال وما قيل له ولم يذكر من أحسن اليه ممن أساء به ، وما نفعه مما ضره ثم كان لا يهتدي لطريق لو سلكه ما لا يحصى ، ولا يحفظ علماً ولو درسه عمره . ولا يعتقد ديناً ، ولا ينتفع بتجربة ، ولا يستطيع أن يعتبر شيئاً على ما مضى بل كان حقيقاً ان ينسلخ من الانسانية .

(١) لعل الاصل في الكلمة مزيداً من الزيادة أو تزييداً من قولك تزييد الرجل في حديثه اي زخرفه وزاد فيه على الحقيقة ، وتزييد في الشيء أي تكلف الزيادة فيه .

(٢) الغي : الضلال والهلاك والخيبة . (٣) الخلال جمع خلة - بالفتح - وهي الخصلة والصفه .

﴿ النعمة على الانسان في الحفظ والنسيان ﴾

فانظر الى النعمة على الانسان في هذه الحلال : وكيف موقع الواحدة منها دون الجميع ، واعظم من النعمة على الانسان ، في الحفظ النعمة في النسيان ، فانه لو لا النسيان لما سلا (١) احد عن مصيبة ، ولا أنقضت له حسرة ، ولا مات له حقد ، ولا استمتع بشيء من متاع الدنيا مع تذكر الآفات ، ولا رجاء غفلة من سلطان ، ولا فترة من حاسد . أفلا ترى كيف جعل في الانسان الحفظ والنسيان وهما مختلفان متضادان ، وجعل له في كل منهما ضرباً من المصلحة ؟ وما عسى أن يقول الذين قسموا الأشياء بين خالقين متضادين في هذه الأشياء المتضادة المتباينة ، وقد تراها تجتمع على ما فيه الصلاح والمنفعة (٢) .

﴿ اختصاص الانسان بالحياة دون بقية الحيوانات ﴾

انظر يا مفضل الى ما خص به الانسان دون جميع الحيوان من هذا الخلق الجليل قدره العظيم غناؤه ، أعني : الحياة . فلولاه لم يُقرضيف (٣) ولم يوف بالعادة ولم تقض الحوائج ، ولم يتجر الجميل ، ولم يتنكب (٤)

(١) سلا الشيء وسلا عنه : نسيه وهجره وطابت نفسه عنه وذهل عن ذكره . (٢) يقول علم النفس الحديث ان النسيان عمل من أعمال الذهن كالتذكر تماماً ، وليس في مقدورنا ان نتذكر شيئاً الا اذا نسينا شيئاً ، حتى ليتمكن القول بان الذاكرة هي أداة النسيان ، ونحن نفكر بفضل ما نسينا ، كما نفكر بفضل ما تذكرنا .

(٣) قرى الضيف : اضافه (٤) يتنكب : يتجنب .

القبسح فى شىء من الاشياء ، حتى ان كثر أ من الامور المفترضة ايضا انما
يفعل للحياء فان من الناس من لولا الحياء لم يرع حق والديه ولم يصل
ذارحم ، ولم يؤد امانة ، ولم يعف عن فاحشة . . . أفلا ترى كيف وفى
الانسان جميع الخلال التي فيها صلاحه وتمام أمره .

﴿ اختصاص الانسان بالمنطق والكتابة ﴾

نأمل يا مفضل ما انعم الله - تقدرست اسماءه - به على الانسان ،
من هذا المنطق الذي يعبر به عما فى ضميره ، وما يخطر بقلبه ، وينتجه فكره
وبه يفهم عن غيره ما فى نفسه ، ولولا ذلك كان بمنزلة البهائم الممثلة ، التي
لا تخبر عن نفسها بشيء ، ولا تفهم عن مخبر شيئاً ، وكذلك الكتابة التي
بها تقيّد اخبار الماضين للباقيين ، واخبار الباقيين للآتين ، وبها تحلّد الكتب
فى العلوم والآداب وغيرها ، وبها يحفظ الانسان ذكر ما يجري بينه وبين
غيره من المعاملات والحساب ولولاه لا نقطع اخبار بعض الأزمنة عن
بعض ، واخبار الغائين عن اوطانهم ، ودرست العلوم وضاعت الآداب
وعظم ما يدخل على الناس من الخلل فى امورهم ومعاملاتهم ، وما يحتاجون
الى النظر فيه من امر دينهم ، وما روي لهم ، مما لا يسعهم جهله ، ولعلك
تظن انها مما يخلص اليه بالحيلة والفتنة ، وليست مما اعطيه الانسان من
خلقه وطبائه .

وكذلك الكلام ، انما هو شىء يصطالح عليه الناس فيجري بينهم
ولهذا صار يختلف فى الامم المختلفة ، وكذلك الكتابة العربى والسريانى
والعبرانى والرومى ، وغيرها من سائر الكتابة التي هي متفرقة فى الامم

أما اصطالحوا عليها ، كما اصطالحوا على الكلام ، فيقال لمن ادعى ذلك :
 ان الانسان وان كان له في الأمرين جميعاً فعل او حيلة ، فان الشيء الذي
 يبلغ به ذلك الفعل والحيلة ، عطية وهبة من الله عز وجل له في خلقه ، فانه
 لو لم يكن له لسان مهياً للكلام ، وذهن يتدبى به للأمور ، لم يكن ليتكلم ابداً
 ولو لم تكن له كف مهينة واصابع للكتابة ، لم يكن ليكتب ابداً .
 واعتبر ذلك من الكبرياء التي لا كلام لها ولا كتابة ، فأصل ذلك
 فطرة الباري جل وعز ، وما تفضل به على خلقه ، فمن شكر أثيب ،
 ومن كفر فان الله غني عن العالمين . (١)

﴿ اعطاء الانسان ما يصلح دينه ودنياه ومنعه مما سوى ذلك ﴾

فكر يا مفضل فيما أعطى الانسان علمه وما منع ، فانه أعطى جميع
 علم ما فيه صلاح دينه ودنياه فمافيه صلاح دينه معرفة الخالق تبارك وتعالى
 بالدلائل والشواهد القائمة في الخلق ، ومعرفة الواجب عليه ، من العدل على
 الناس كافة . وبر الوالدين ، وأداء الأمانة ، ومواساة أهل الخلة ، واشباه
 ذلك ، مما قد توجد معرفته ، والاقرار والاعتراف به في الطبع والفطرة ،
 من كل امة موافقة أو مخالفة ، وكذلك أعطى علم ما فيه صلاح دنياه ،
 كالزراعة والغراس ، واستخراج الارضين ، واقتناء الأغنام والأنعام ،
 واستنباط المياه ، ومعرفة العقاقير التي يستشفى بها من ضروب الأسقام ،
 والمعادن التي يستخرج منها أنواع الجواهر ، وركوب السفن ، والغوص في
 (١) كلام الامل في بحث اللغات وشأنها ها هنا يشعر بان الانسان

هو الذي وضع اللغات ، بما خطره الله من قابلية المنطق وتعلم الكلام .

البحر ، وضروب الحيل في صيد الوحش والطير والحيتان ، والتصرف في الصناعات ووجوه المتاجر والمكاسب ، وغير ذلك مما يطول شرحه ويكثر تعداده ، مما فيه صلاح أمره في هذه الدار . فاعطى علم ما يصلح به دينه ودنياه ، ومنع ما سوى ذلك ، مما ليس في شأنه ولا طاقته ان يعلم . كعلم الغيب وما هو كائن . وبعض ما قد كان أيضاً ، كعلم ما فوق السماء وما تحت الأرض . وما في لجج البحار واقطار العالم ، وما في قلوب الناس وما في الأرحام واشباه هذا مما حجب على الناس علمه .

وقد ادعت طائفة من الناس هذه الأمور ، فابطل دعواهم ما يبين من خطئهم ، فيما يقضون عليه ويحكمون به فيما ادعوا عليه .

فانظر كيف اعطى الانسان علم جميع ما يحتاج اليه لدينه ودنياه ، وحجب عنه ما سوى ذلك ، ليعرف قدره ونقصه وكلا الأمرين فيها صلاحه ﴿ ما ستر عن الانسان علمه من مدة حياته ﴾

تأمل الآن يا مفضل ما ستر عن الانسان علمه من مدة حياته ، فانه لو عرف مقدار عمره - وكان قصير العمر - لم يتهنأ بالعيش ، مع تقرب الموت وتوقعه ، لو قد عرفه ، بل كان يكون بمنزلة من قد فنى ماله ، أو قارب الفناء ، فقد استشعر الفقر ، والوجل من فناء ماله وخوف الفقر على ان الذي يدخل على الانسان من فناء العمر أعظم مما يدخل عليه من فناء المال ، لأن من يقل ماله يأمل أن يستخلف منه ، فيسكن إلى ذلك ، ومن أيقن بفناء العمر استحكم عليه اليأس وان كان طويل العمر ، ثم عرف ذلك ، وثق بالبقاء ، وأهمك في اللذات والمعاصي ، وعمل على انه يبلغ من

ذلك شهوته ، ثم يتوب في آخر عمره ، وهذا مذهب لا يرضاه الله من عباده ولا يقبله ، ألا ترى لو ان عبداً لك عمل على أنه يسخطك سنة ويرضيك يوماً أو شهراً ، لم تقبل ذلك منه ، ولم يحل عندك محل العبد الصالح دون ان يضر طاعتك ونصحتك في كل الأمور ؟ وفي كل الأوقات ، على تصرف الحالات (فان قلت) أوليس قد يقيم الانسان على المعصية حينئذ يتوب فتقبل توبته ؟ (قلنا) : ان ذلك شيء يكون من الانسان لغلبة الشهوات له ، وتركه مخالفتها . من غير ان يقدرها في نفسه ، ويبني عليه أمره ، فيصفح الله عنه ، ويتفضل عليه بالمغفرة . فاما من قدر أمره على ان يعصى ما بدا له ، ثم يتوب آخر ذلك ، فاما يحاول خديعة من لا يخادع ، بان يتسلف (١) التلذذ في العاجل ، وبعد ويمنى نفسه التوبة في الآجل ، ولأنه لا يفي بما يعد من ذلك ، فان النزوع من الترفه والتلذذ ومعاناة (٢) التوبة ، ولا سيما عند الكبر وضعف البدن ، امر صعب ، ولا يؤمن على الانسان ، مع مدافعتة بالتوبة ان يرهقه الموت ، فيخرج من الدنيا غير نائب ، كما قد يكون على الواحد دين الى اجل ، وقد يقدر على قضائه ، فلا يزال يدافع بذلك حتى يحل الآجل ، وقد نفذ المال ، فيبقى الدين قائماً عليه . فكان خير الأشياء للانسان ان يستر عنه مبلغ عمره ، فيكون

(١) التسلف : الاقتراض كأنه يجري معاملة مع ربه ، باز يتصرف في اللذات عاجلاً ويعد ربه في عوضها التوبة ليؤدي اليه آجلاً . وفي بعض النسخ يستسلف وهو طلب ويبيع الشيء سلفاً .

(٢) المعاناة : مقاساة العناء والمشقة .

طول عمره يتربح الموت ، فيترك المعاصي ، ويؤثر العمل الصالح (فان قلت) . وها هو الآن قد ستر عنه مقدار حياته ، وصار يتربح الموت في كل ساعة يقارف (١) الفواحش وينتهك المحارم (٢) (قلنا) : ان وجه التدبير في هذا الباب ، هو الذي جرى عليه الأمر فيه فان كان الانسان مع ذلك لا يرعوى (٣) ولا ينصرف عن المساوي ، فانما ذلك من مرحه ومن قساوة قلبه ، لا من خطأ في التدبير . كما ان الطبيب قد يصف للمريض ما ينتفع به ، فان كان المريض مخالفاً لقول الطبيب ، لا يعمل بما يأمره ولا ينتهي عما ينهاه عنه ، لم ينتفع بصفته ، ولم تكن الاساءة في ذلك للطبيب بل للمريض ، حيث لم يقبل منه . ولئن كان الانسان مع ترقيه للموت كل ساعة لا يمتنع عن المعاصي ، فانه لو وثق بطول البقاء كان احرى بان يخرج الى الكبائر الفظيعة . . فتربح الموت على كل حال خير له من الثقة بالبقاء ثم ان تربح الموت وان كان صنف من الناس يلهون عنه ، ولا يتعظون به فقد يتعظ به صنف آخر منهم ، وينزعون عن المعاصي ، ويؤثرون العمل الصالح ، ويجودون بالأموال والعقائل (٤) النفيسة في الصدقة على الفقراء والمساكين . فلم يكن من العدل ان يحرم هؤلاء الانتفاع بهذه الخصلة لتضييع

(١) في الأصل المطبوع يفارق ولا يستقيم المعنى بها بل يكون عكسياً . ولما رجعنا إلى البحار وجدناها يقارف .

(٢) المحارم جمع محرم وهو الحرام .

(٣) الارعواء : الكف عن الشيء ، او الندم على الشيء . والانصراف

عنه وتركه . (٤) العقائل جمع عقيلة والعقيلة من الابل هي الكريمة ، والعقيلة من كل شيء هي أكرمه .

اوائك حظهم منها .

﴿ الأحلام وامتزاج صادقها بكاذبها وسر ذلك ﴾

فكر يا مفضل في الأحلام كيف إدبر الأمر فيها فمزج صادقها بكاذبها ، فإنها لو كانت كلها تصدق لكان الناس كلهم انبياء ، ولو كانت كلها تكذب ، لم يكن فيها منفعة ، بل كانت فضلاً لا معنى له ، فصارت تصدق أحياناً ، فينتفع بها الناس في مصلحه يهتدي لها ، أو مضرة يتحذر منها ، وتكذب كثيراً لئلا يعتمد عليها كل الاعتماد .

﴿ الأشياء المخلوقة لما رب الانسان وايضاح ذلك ﴾

فكر يا مفضل في هذه الأشياء التي تراها موجودة معدة في العالم من مآربهم ، فالتراب للبناء . والحديد للصناعات ، والخشب للسفن وغيرها والحجارة للأرحاء (١) وغيرها ، والنحاس للأواني ، والذهب والفضة للمعاملة والذخيرة ، والحبوب للغذاء ، والثمار للتمكك ، والاحم للمأكل ، والطيب للتلذذ ، والأدوية للتصحيح (٢) والدواب للحمولة والخطب للتوقد والرماد للكلس (٣) ، والرمل للارض ، وكم عسى أن يحصى المحصى من هذا وشبهه . . . أرأيت لو ان داخلا دخل داراً ، فنظر إلى خزائن مملوءة من كل ما يحتاج اليه الناس ، ورأى كلها فيها مجموعاً معداً لأسباب معروفة أكان يتوهم ان مثل هذا يكون بالاهمال ، ومن غير عمد ؟ فكيف يستجيز

(١) الارحاء جمع رحي وهي الطاحونة . (٢) التصحيح من صحيح

المريض : أزال مرضه . (٣) الكلس : - بالكسر - ما يقوم به الحجر والرخام ونحوهما ويتخذ منها باحراقها .

قائل لمن يقول هذا من صنع الطبيعة في العالم ، وما أعد فيه من هذه الأشياء .
 اعتبر يا مفضل بأشياء خلقت لما رب الانسان ، وما فيها من التدبير
 فانه خلق له الحب لطعامه ، وكاف طحنه وعجنه وخبزها ، وخلق له الوبر
 لـكسوته ، فكلفت ندفه وغزله ونسجه ، وخلق له الشجر ، فكلف غرسها
 وسقيها والقيام عليها ، و خلقت له العقاقير لأدويته ، فكلف لقطها (١)
 وخلقها وصنعها ، وكذلك تجد سائر الأشياء على هذا المثال .

فانظر كيف كفى الخلقه التي لم يكن عنده فيها حيلة وترك عليه في
 كل شيء من الأشياء موضع عمل وحركة ، لماله في ذلك من الصلاح ،
 لأنه لو كفى هذا كله ، حتى لا يكون له في الأشياء موضع شغل وعمل ،
 لما حملته الأرض أشراً وبطراً (٢) وبلغ به ذلك الى ان يتعاطى أموراً
 فيها تلف نفسه ، ولو كفى الناس كلهم يحتاجون اليه لما تهنأوا (٣) بالعيش
 ولا وجدوا له لذة . . ألا ترى لو ان امرأاً نزل بقوم ، فاقام حيناً بلغ
 جميع ما يحتاج اليه من مطعم ومشرب وخدمة ، لتبرم بالفراغ ونازعته
 نفسه الى التشاغل بشيء ، فكيف لو كان طول عمره مكفياً لا يحتاج إلى
 شيء ؟ فكان من صواب التدبير في هذه الأشياء التي خلقت للانسان : ان
 جعل له فيها موضع شغل ، لكيلا تبرمه البطالة ، ولتكفه عن تعاطي مالا

(١) اللقط مصدر من لقط الشيء : اخذه من الأرض بلا تعب ،
 ولقط الطائر الحب : أخذه بمنقاره .

(٢) الأشر والبطر « كلاهما بالفتح » بمعنى واحد .

(٣) وفي نسخة البحار تهنأوا .

يناله ، ولا خير فيه ان ناله .

﴿ الخبز والماء رأس معاش الانسان وحياته ﴾

واعلم يا مفضل ان رأس معاش الانسان وحياته : الخبز والماء .. فانظر كيف دبر الأمر فيها ، فان حاجة الانسان إلى الماء أشد من حاجته إلى الخبز ، وذلك ان صبره على الجوع أكثر من صبره على العطش ، والذي يحتاج اليه من الماء أكثر مما يحتاج اليه من الخبز ، لأنه يحتاج اليه لشربه ووضوئه وغسله وغسل ثيابه وسقي انعامه وزرعه ، فجعل الماء مبدولاً لا يشتري لتسقط عن الانسان المؤنة في طلبه وتكلفه ، وجعل الخبز متعذراً لا ينال إلا بالحملة والحركة ، ليكون للانسان في ذلك شغل يكفه عما يخرج به اليه الفراغ من الأشر والعبث .. ألا ترى ان الصبي يدفع إلى المؤدب ، وهو طفل لم تكمل ذاته للتعليم ، كل ذلك ليشغل عن اللعب والعبث الذين ربما جنوا عليه وعلى اهله المسكروه العظيم . وهكذا الانسان لو خلا من الشغل ، لخرج من الأشر والعبث والبطر ، إلى ما يعظم ضرره عليه وعلى من قرب منه . واعتبر ذلك بمن نشأ في الجدة (١) ورفاهية العيش والترفيه والكفاية ، وما يخرج به ذلك اليه .

﴿ اختلاف صور الناس وتشابه الوحوش والطيور وغيرها ﴾

﴿ من الحكمة في ذلك ﴾

اعتبر لم لا يتشابه الناس واحد بالآخر ، كما تتشابه الوحوش والطيور وغير ذلك ، فانك ترى السرب من الطباء والقطا تتشابه حتى لا يفرق (١) الجدة - بالتخفيف - الغنى .

بين واحد منها وبين الأخرى ، وترى الناس مختلفة صورهم وخلقهم ، حتى لا يكاد اثنان منهم يجتمعان في صفة واحدة . والعلة في ذلك ان الناس محتاجون إلى أن يتعارفوا بأعيانهم وحلالمهم ، لما يجري بينهم من المعاملات وليس يجري بين البهائم مثل ذلك ، فيحتاج إلى معرفة كل واحد منها بعينه وحليته . ألا ترى ان التشابه في الطير والوحش لا يضرها شيئاً ، وليس كذلك الانسان ، فانه ربما تشابه التوائم (١) تشابهاً شديداً فتعظم المؤنة على الناس في معاملتهما ، حتى يعطى أحدهما بالآخر ، ويؤخذ أحدهما بذنب الآخر (٢) ، وقد يحدث مثل هذا في تشابه الاشياء . فضلاً عن تشابه الصور ، فمن لطف بعباده بهذه الدقائق التي لا تكاد تخطر بالبال ، حتى وقف بها على الصواب ، إلا من وسعت رحمته كل شيء .

لو رأيت تمثال الانسان مصوراً على حائط ، وقال لك قائل : ان هذا ظهر هنا من تلقاء نفسه لم يصنعه صانع . . . أ كنت تقبل ذلك ، بل كنت تستهزئ به ، فكيف تنكر هذا في تمثال مصور جماد ، ولا تنكر في الانسان الحي الناطق .

(١) التوائم : المولود مع غيره في بطن واحد جمعه توائم . وفي جميع النسخ توأمان ووزودها هنا خطأ ظاهر ، إذ لا يجوز فيها لأكثر من فردين ، ومجيؤها بهذا النص دلالة على التثنية فيكون معناها اربعة أفراد (٢) أي قد يشبه مال شخص بمال شخص آخر كثوب او دينار فيصير سبباً للاشتباه والتشاجر والتنازع فضلاً عن تشابه الصورة فانه أعظم فساداً

﴿ نمو ابدان الحيوان وتوقفها وسبب ذلك ﴾

لم صارت ابدان الحيوان - وهي تغتذي ابدًا - لا تنمي ، بل تنمى إلى غاية من النمو ، ثم تقف ولا تتجاوزها ، لولا التدبير في ذلك ، فان تدبير الحكيم فيها أن تكون ابدان كل صنف منها على مقدار معلوم غير متفاوت في الكبير والصغير ، وصارت تنمى حتى تصل إلى غايتها ، ثم تقف ثم لا تزيد ، والغذاء مع ذلك دائم لا ينقطع ولو تنمي نمواً دائماً لعظمت ابدانها ، واشتهت مقاديرها (١) حتى لا يكون لشيء منها حد يعرف .

﴿ ما يعترى أجسام الانس من ثقل الحركة والمشى لو لم يصبها ألم ﴾

لم صارت أجسام الانس خاصة تثقل عن الحركة والمشى ، وتجنو عن الصناعات اللطيفة (٢) ، ألا لتعظيم المؤنة فيما يحتاج اليه الناس للملبس والمضجع والتكفين وغير ذلك ، لو كان الانسان لا يصيبه ألم ولا وجع ، لم كان يرتدع عن الفواحش ، ويتواضع لله ، ويتعطف على الناس . . . أما ترى الانسان اذا عرض له وجع خضع واستكان ورغب إلى ربه في العافية ، وبسط يده بالصدقة ، ولو كان لا يألم من الضرب لم كان السلطان (١) اي لم يعرف غاية ما يذهي اليه مقداره ، فيشتبه الأمر عليه ، فيما يريد أن يهبئه لنفسه من دار وثياب وزوجة .

(٢) أي يتعبد ويحتمل ولا يداوم على الصناعات اللطيفة أي التي فيها دقة ولطافة . والمراد ان الله تعالى جعل اجسام الانسان بحيث تثقل عن الحركة والمشى قبل سائر الحيوانات ، ونكل عن الاعمال الدقيقة لتعظيم عليه مؤونة تحصيل ما يحتاج اليه ، فلا يبطر ولا يطمع ، او ليكون لهذه الاعمال أجر ، فيصير سبباً لمعاش أقوام يزاولونها .

يعاقب الدُّعار (١) وينذل العصاة المردة ، وبِم كان الصبيان يتعلمون العلوم والصناعات ، وبِم كان العبيد يذلون لأربابهم ، ويدعونون لطاعتهم . أفليس هذا توبيخ (ابن أبي العوجاء) (٢) وذويه الذين جحدوا التديير .
(والمناوية) الذين أنكروا الوجع والألم .

﴿ انقراض الحيوان لو لم يلد ذكوراً وإناثاً ﴾
ولو لم يولد من الحيوان إلا ذكر فقط أو أنثى فقط ألم يكن النسل منقطعاً وباد مع أجناس الحيوان ، فصار بعض الاولاد يأتي ذكوراً وبعضها يأتي أنثى اناثاً ليدوم التناسل ولا ينقطع .
﴿ ظهور شعر العانة عند البلوغ ونبات اللحية للرجل دون ﴾

﴿ المرأة وما في ذلك من التديير ﴾

لم صار الرجل والمرأة اذا أدركا تنبت لهما العانة ، ثم تنبت اللحية للرجل ، وتتخلف عن المرأة ، لولا التديير في ذلك ، فانه لما جعل الله تبارك وتعالى الرجل قima ورقيقاً على المرأة ، وجعل المرأة عرساً وخولاً (٣) للرجل ، اعطى الرجل اللحية ، لما له من العز والجلالة والهيبة ، ومنعها المرأة ، لتبقى لها نظارة الوجه والبهجة التي تشاكل المفاكة (٤) والمضاجعة

(١) الدعار جمع داعر وهو الخبيث . وفي النسخة المطبوعة الدعار بالذال وهذا تصحيح . (٢) تقدمت ترجمة ابن أبي العوجاء في مقدمة الكتاب . (٣) الخول - بفتحتين - : العبيد والاماء وغيرهم من الحاشية وهو يستعمل بلفظ واحد للجميع ، وربما قيل للواحد خائل .
(٤) المفاكة : هي المازحة والمضاجعة .

أفلا ترى الحلقة كيف تأتي بالصواب في الأشياء ، وتتخلل مواضع الخطأ (١) فتعطي وتمنع على قدر الارب (٢) والمصلحة بتدبير الحكيم عز وجل

قال المفضل : ثم حان وقت الزوال ، فقام مولاي الى الصلاة ، وقال : بذكر (٣) إليَّ غداً انشاء الله تعالى .. فانصرفت من عنده مسروراً بما عرفته ، مبتهجاً بما اوتيته ، حامداً لله تعالى عز وجل على ما انعم به عليّ شاكراً لأنعمه على ما منحنى بما عرفنيه مولاي ، وتفضل به عليّ ، فبت في ليلتي مسروراً بما منحيه ، محبوراً بما علمنيه .

(١) يحتمل أن تكون الجملة حالية ، اي تأتي بالصواب مع انها تدخل مواضع هي مظنة الخطأ من قولهم تخللت القوم اي دخلت خلالها ويحتمل أن يكون المراد بالتخلل التخلف أو الخروج من خلالها ؛ لكن تطبيقها على المعاني اللغوية يدعو الى التكلف .

(٢) الارب - بفتحين - : الحاجة والغاية والجمع آراب .

(٣) بكر - بالتشديد - أتاه بكرة .

المجلس الثاني

قال المفضل : فلما كان اليوم الثاني بكرت إلى مولاي فاستؤذن لي فدخلت ، فامرني بالجلوس فجلست فقال : —

أحمد لله مدبر الادوار (١) ، ووعيد الاكوار (٢) ، طبقاً (٣) عن طبق ، وعالمًا بعد عالم ، ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ، ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى ، عدلاً منه ، تقدرت أسماؤه ، وجاءت آلاؤه ، لا يظلم الناس شيئاً ، ولكن الناس أنفسهم يظلمون ، يشهد بذلك قوله جل قدسه (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) في نظائرها (٤) في كتابه الذي فيه تبيان كل شيء . ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . تنزيل من حكيم حميد) ولذلك قال سيدنا محمد صلوات الله عليه وعلى آله : « انما هي أعمالكم ترد اليكم » ثم أطرق الامام هنيئة وقال : يا مفضل الخاق حيارى عمهون (٥) سكارى في طغيانهم يترددون ، وبشياطينهم وطواغيتهم يقتدون ، بصراء

(١) الادوار جمع دور مصدر بمعنى الحركة . (٢) الاكوار جمع كور - بالفتح - مصدر بمعنى الجماعة الكثيرة او القطيع من الابل والبقر ويقال كل دور كور والمراد اما استئناف قرن بعد قرن وزمان بعد زمان (٣) الطبق : وجه الارض ولعل المراد به معنى الحال يقال : الدهر اطباق ، اي أحوال تختلف . (٤) اي قالها في ضمن نظائرها أو مع نظائرها . (٥) عمهون جمع عمه - بفتح فكسر - وهو المتردد في الضلال والمتحير في أمره أو طريقه .

عمى لا يبصرون ، نطقاء بكم (١) لا يعقلون ، سَمْعَاءُ (٢) صم (٣) لا يسمعون ، رضوا بالدون (٤) ، وحسبوا انهم مهتدون ، حادوا (٥) عن مدرجة (٦) الاكياس (٧) ورتعوا في مصرى الارجاس «٩» الانجاس ، كأنهم من مفاجآت الموت آمنون ، وعن المجازات مزحزون ، يا ويلهم ما أشقاهم ، وأطول عنائهم واشد بلائهم «يوم لا يُغنى مولى عن مولى شيئاً ولا لهم يُنصرون إلا من رَحِمَ الله» .
قال المفضل : فبكيت لما سمعت منه ! . فقال : لا تيك تخلصت اذ قبلت ، ونجوت اذ عرفت .

﴿ أبنية أبدان الحيوان وتهيتها وإيضاح ذلك ﴾

ثم قال : ابتدئ لك بذكر الحيوان ليتضح لك من أمره ما وضح لك من غيره . ففكر فى أبنية أبدان الحيوان ، وتهيتها على ما هي عليه فلا هي صلاب كاللحجارة . ولو كانت كذلك لا تنثني «٩» ولا تتصرف

(١) بكم جمع أبكم وهو الآخرس .

(٢) سَمْعَاءُ جمع سَمِيع بمعنى السامع والمسمع وهو للمبالغة .

(٣) الصم جمع أصم وهو الذى انسدت اذنه وثقل سمعه او ذهب

عنه بتاتا . (٤) الذين أريد به هنا معنى الخسيس الحقير السافل .

(٥) حادوا : مالوا . (٦) مدرجة جمع مدارج : ما يساعد على

التوصل الى ما هو افضل او أعلى منه . (٧) الاكياس : جمع كيس

- بتشديد الياء - اي الفطن الحسن الفهم والادب .

(٨) الارجاس لعلة جمع رجس - بالكسر - القذر والمأثم او كل ما

استقذر من العمل والعمل المؤدى الى العذاب .

(٩) لا تنثني : لا تنعطف ولا تميل .

في الاعمال ، ولا هي على غاية اللين والرخاوة ، فكانت لا تتحامل ، ولا تستقل بانفسها ، فجعلت من لحم رخو ينثني ، تتداخله عظام صلاب يمسكه عصب وعروق تشده ، وتضم بعضه إلى بعض ، وغلفت « ١ » فوق ذلك بجلد يشتمل على البدن كله واشباه ذلك . هذه التماثيل التي تعمل من العيدان ، وتلف بالخرق وتشد بالخياط ، وتطلى فوق ذلك بالصمغ فتكون العيدان بمنزلة العظام ، والخرق بمنزلة اللحم ، والخياط بمنزلة العصب والعروق ، والطلاء بمنزلة الجلد ، فان جاز أن يكون الحيوان المتحرك حدث بالاهمال من غير صانع جاز أن يكون ذلك في هذه التماثيل الميته ، فان كان هذا غير جائز في التماثيل فبالحرى أن لا يجوز في الحيوان .

﴿ أجساد الانعام وما اعطيت وما منعت وسبب ذلك ﴾

وفكر يا مفضل - بعد هذا - في أجساد الانعام « ٢ » فانها حين خلقت على ابدان الانس من اللحم والعظم والعصب ، اعطيت ايضا السمع والبصر ليبلغ الانسان حاجته ، فانها لو كانت عمياء لما انتفع بها الانسان ولا تصرف في شيء من مآربه ، ثم منعت الذهن والعقل لتدل للانسان ، فلا تمتنع عليه ، اذا كدها السكد الشديد ، وحملها الحمل الثقيل . فان قال قائل انه قد يكون للانسان عيب من الانس ، يذلون ويذعنون بالسكد الشديد ، وهم مع ذلك غير عديمي العقل والذهن . فيقال في جواب ذلك ان هذا الصنف من الناس قليل ، فاما أكثر الناس فلا يذعنون بما تدعن

(١) في نسخة وعليت .

(٢) الانعام جمع نعم - بفتحيتين - الابل وتطلق على البقر والغنم .

به الدواب من الحمل والطحن وما أشبه ذلك ، ولا يغرون (١) بما يحتاج اليه منه . . ثم لو كان الناس يزاولون مثل هذه الأعمال بأبدانهم لشغلوا بذلك عن سائر الأعمال ، لأنه كان يحتاج مكل الجمل الواحد والبغل الواحد الى عدة اناسي ، فكان هذا العمل يستفرغ الناس حتى لا يكون فيهم عنه فضل لشيء من الصناعات مع ما يلحقه من التعب الفادح في ابدانهم والضيق والسكد في معاشهم .

﴿ خلق الاصناف الثلاثة من الحيوان ﴾

فكر يا مفضل في هذه الأصناف الثلاثة من الحيوان وفي خلقها ، على ما هي عليه ، مما فيه صلاح كل واحد منها . فالانس لما قدروا أن يكونوا ذوي ذهن وفطنة وعلاج لمثل هذه الصناعات من البناء والتجارة والصياغة والخياطة وغير ذلك خلقت لهم أكف كبار ذوات أصابع غلاظ ليتمكنوا من القبض على الأشياء ، واوكدتها هذه الصناعات .

﴿ آكلات اللحم من الحيوان والتدبير في خلقها ﴾

وآكلات اللحم لما قدر أن تكون معاشها من الصيد ، خلقت لهم أكف لطاف مدبجة (٢) ذوات برائن (٣) ومخالب (٤) تصلح لأخذ

(١) لا يغرون - بالغين على بناء المفعول - اي لا يؤثر فيهم الاغراء والتجريض على جميع الاعمال التي يحتاج اليها الخلق من ذلك العمل الذي تأتي به الدواب . (٢) مدبجة أي مستقيمة محكمة متداخلة .

(٣) البرائن جمع برثن - بالضم - من السباع والطيور بمنزلة الاصبع من الانسان . (٤) المخالب جمع مخالب - بالكسر - وهو الظفر خصوصاً من السباع

الصيد ولا تصلح للصناعات ، وآكلات النبات لما قدر أن يكونوا ،
لا ذوات صنعة ولا ذات صيد خلقت لبعضها اضلاف تقيها خشونة الارض
اذا حاولت طلب المرعى ، ولبعضها حوافر ململمة (١) ذوات قعر (٢)
كأخص القدم تنطبق على الارض عند تهيئتها للركوب والحملولة .

تأمل التدبير في خلق آكلات اللحم من الحيوان ، حين خلقت
ذوات أسنان حداد ، وبرائن شداد ، واشداق (٣) وافواه واسعة ، فانه
لما قدر ان يكون طعامها (٤) اللحم خلقت خلقة تشاكل ذلك واعينت
بسلاح ، وأدوات تصلح للصيد ، وكذلك تجد سباع الطير ذوات مناقير
ومخالب مهيئة لفعلها ، ولو كانت الوحوش ذوات مخالب كانت قد أعطيت
ما لا تحتاج اليه ، لانها لا تصيد ولا تأكل اللحم ، ولو كانت السباع
ذوات اضلاف كانت قد منعت ما تحتاج اليه ، اعني السلاح الذي تصيده
وتعيش . أفلا ترى كيف أعطى كل واحد من الصنفين ما يشاكل صنفه
وطبقته . بل ما فيه بقاؤه وصلاحه .

﴿ ذوات الاربع واستقلال اولادها ﴾

انظر الآن الى ذوات الاربع كيف تراها تتبع أماتها (٥) مستقلة
بانفسها لا تحتاج الى الحل والتربية كما تحتاج أولاد الانس ، فمن أجل انه

(١) ململمة اي مجموعه بعضها الى بعض (٢) قعر كل شيء اقصياه
(٣) الإشداق جمع شديق - بالفتح او الكسر - زاوية الفم من باطن الخدين
(٤) الطعام - بالضم - الطعام . (٥) الامات جمع ام وقيل انها تستعمل في
البهائم ، واما في الناس فهي امهات .

ليس عند أمانها ما عند امهات البشر من الرفق والعلم بالتربية ، والقوة عليها
 بالا كف والاصابع المميأة لذلك أعطيت النهوض والاستقلال بانفسها وكذلك
 ترى كثيراً من الطير كمثل الدجاج والدراج (١) والقبج (٢) ، تدرج
 وتلفظ حين تنقأ عنها البيضة . فاما ما كان منها ضعيفاً لا نهوض فيه ،
 كمثل فراخ الحمام واليمام (٣) والجر (٤) فقد جعل في الامهات فضل عطف
 عليها ، فصارت تمج (٥) الطعام في أفواها بعد ما توعيه (٦) حواصلها (٧)
 فلا تزال تغنوها حتى تستقل بانفسها ، ولذلك لم ترزق الحمام فراخاً كثيرة
 مثل ما ترزق الدجاج ، لتقوى الام على تربية فراخها فلا تفسد ولا تموت
 فيكلاً أعطى بقسط من تدبير الحكيم اللطيف الخبير .

﴿ قوائم الحيوان وكيفية حركتها ﴾

انظر إلى قوائم الحيوان كيف تأتي أزواجاً ، لتهيئ المشي ، ولو

(١) الدراج - بضم فتشديد - طائر شبيه بالحجل واكبر منه أرقط
 بسواد وبياض قصير المقار يطلق على الذكر والانثى ، جمعه دراريج
 وواحدته دراجة والتاء للوحدة لا للتأنيث .

(٢) القبج - بفتح حين - طائر يشبه الحجل وفي القاموس هو الحجل
 والواحدة قبجة تقع على الذكر والانثى .

(٣) اليمام : الحمام الوحشي .

(٤) الجر - بضم فتشديد - طائر أحمر اللون والواحدة حمرة .

(٥) تمج الطعام أي تربي به .

(٦) توعيه من أوعى الزاد ونحوه أي جعله في الوعاء .

(٧) الحواصل كانها جمع حوصلة وحوصلاء وهي من الطير بمنزلة

المعدة من الانسان .

كانت افراداً لم تصاح لذلك ، لان المشاي ينقل قوائمه يعتمد على بعض فذو القامتين ينقل واحدة ويعتمد على واحدة ، وذو الاربع ينقل اثنتين ويعتمد على اثنتين وذلك من خلاف ، لان ذا الاربع لو كان ينقل قائمتين من احد جانبيه ، ويعتمد على قائمتين من الجانب الآخر ، لم يثبت على الارض ، كما يثبت السرير وما اشبهه ، فصار ينقل اليمنى من مقدمه مع اليسرى من مآخيره ، وينقل الاخرين ايضاً من خلاف ، فيثبت على الارض ، ولا يسقط اذا مشى .

(انقياد الحيوانات المسخرة للانسان وسببه)

أما ترى الحمار كيف يذل للطحن والحولة وهو يرى الفرس مودعا منعماً ، والبعير لا يطيقه عدة رجال لو استعصى كيف كان ينقاد للصبي ؟ والثور الشديد كيف كان يذعن لصاحبه ، حتى يضع النير (١) على عنقه ، ويحترق به ؟ والفرس الكريم يركب (٢) السيوف والاسنة بالمواتاة لفارسه والقطيع من الغنم يرعاه واحد ، ولو تفرقت الغنم فاخذ كل واحد منها في ناحية لم يلحقها . وكذلك جميع الاصناف المسخرة للانسان . . كانت كذلك ؟ الا بانها عدمت العقل والروية ، فانها لو كانت تعقل وتروى في الامور كانت خليقة ان تلتوى على الانسان في كثير من مآربه حتى يمتنع الجمل على قائده والثور على صاحبه ، وتنفرد الغنم عن راعيها واشباه هذا من الامور .

(١) النير - بالكسر - الخشبة المعتضة في عنق الثورين بأدانتها
والجمع أنيار ونيران . (٢) يركب السيوف والاسنة اي يلقي نفسه عليها .

﴿ افتقاد السباع للعقل والروية وفائدة ذلك ﴾

وكذلك هذه السباع لو كانت ذات عقل وروية فتوازرت (١) على الناس ، كانت خليفة أن يحتاجهم ، فمن كان يقوم للأسد والذئاب والنمور والذئبة ، لو تعاونت وتظاهرت على الناس ؟ .. أفلا ترى كيف حجر (٢) ذلك عليها وصارت مكان ما كان يخاف من أقدامها ونكايتها ، تهاب مساكن الناس وتحجم عنها ، ثم لا تظهر ولا تنتشر لطاب قوتها إلا بالليل ، فهي مع صولتها كالخائف من الانس بل مقموعة (٣) ممنوعة منهم ولو كان ذلك لساورتهم في مساكنهم ، وضيق عليهم .

﴿ عطف الكلب على الانسان ومحاماته عنه ﴾

ثم جعل في الكلب من ين هذه السباع عطف على ماله ومحاماة عنه ، وحافظ له ، ينتقل على الحيطان والسطوح في ظلمة الليل لحراسة منزل صاحبه وذب الدعار عنه ، ويبلغ من محبته لصاحبه أن يبذل نفسه للموت دونه ودون ماشيته وماله ويألفه غاية الألف (٤) حتى يصبر معه على الجوع والجفوة .. فلم طبع الكلب على هذه الالفة والمحبة ؟ إلا ليكون حارساً للانسان له عين (٥) بانياب (٦) ومخالب ، ونباح هائل ، ليذعر منه

(١) توازرت أي اجتمعت واتحدت .

(٢) حجر عليه الأمر : حرّمه ومنعه .

(٣) مقموعة : مقهورة ذليلة .

(٤) الالف - بفتح فسكون - المحبة والانس .

(٥) العين - بالفتح - الغلط في الجسم والخشونة .

(٦) الانياب جمع ناب وهو السن خلف الرباعية مؤنث .

السارق ، ويتجنب المواضع التي يحميمها ويخفها (١) .

﴿ وجه الدابة وفمها وذنبها وشرح ذلك ﴾

يا مفضل تأمل وجه الدابة كيف هو . . ؟ فانك ترى العينين
شاخصتين أمامها لتبصر ما بين يديها ، لئلا تصدم حائطاً ، أو تردى في
حفرة . وترى الفم مشقوقاً شقاً في أسفل الخطم (٢) . ولو شق كمكان الفم
من الانسان في مقدم الذقن ، لما استطاع أن يتناول به شيئاً من الأرض
ألا ترى ان الانسان لا يتناول الطعام بفيه ولكن بيده ، تكرمة له على
سائر الآكلات ، فلما لم يكن للدابة يد تتناول بها العلف جعل خرطومها (٣)
مشقوقاً من أسفله ، لتقبض على العلف ثم تقضمه ، واعينت بالحفلة (٤)
لتتناول بها ما قرب وما بعد . . اعتبر بذنبها والمنفعة لها فيه ، فانه بمنزلة
الطبق (٥) على الدبر والحياء جميعاً ، يواريهما ويسترهما ، ومن منافعها فيه
ان ما بين الدبر ومراقي البطن منها وضر (٦) يجتمع عليها الذباب والبعوض
فجعل لها الذنب كالذبابة (٧) تذب بها عن تلك المواضع ، ومنها ان الدابة
تستريح إلى تحريكه وتصريفه يمنة ويسرة ، فانه لما كان قيامها على الأربع
باسرها ، وشغلت المقدمتان بحمل البدن عن التصرف والتقلب ، كان لها

(١) يخفها : يحيرها ويؤمنها . (٢) خطم الدابة : مقدم انفها وفمها

(٣) الخرطوم : الأنف أو مقدمه أو ما ضمنت عليه الحنكين .

(٤) الحفلة هي لذات الحافر كالشفة للانسان .

(٥) الطبق - بفتححتين - مصدر الغطاء جمعه أطباق .

(٦) الوضر - بفتححتين - مصدر الوسخ .

(٧) المذبة - بالكسر - ما يذب به الذباب .

في تحريك الذنب راحة ، وفيه منافع أخرى يقصر عنها الوهم ، فيعرف موقعها في وقت الحاجة إليها ، فمن ذلك ان الدابة ترتطم في الوحل (١) ، فلا يكون شيء أعون على نهوضها ، من الأخذ بذنبها ، وفي شعر الذنب منافع للناس كثيرة يستعملونها في مآربهم ، ثم جعل ظهرها مسطحاً مبطوحاً على قوائم اربع ليتمكن من ركوبها ، وجعل حياها بارزاً من وراءها ليتمكن الفحل من ضربها ، ولو كان اسفل البطن كما كان الفرج من المرأة لم يتمكن الفحل منها . . ألا ترى انه لا يستطيع ان يأتيها كفاحاً (٢) كما يأتي الرجل المرأة .

﴿ الفيل ومشفره ﴾

تأمل مشفر (٣) الفيل وما فيه من لطيف التدبير ، فانه يقوم مقام اليد في تناول العلف والماء ، وازدادها إلى جوفه ، ولولا ذلك لما استطاع أن يتناول شيئاً من الأرض ، لأنه ليست له رقبة يعدها كسائر الانعام ، فلما عدم العنق أعين مكان ذلك بالخرطوم الطويل ليسد له ، فيتناول به حاجته . . فمن ذا الذي عوضه مكان العضو الذي عدم ما يقوم مقامه إلا الرؤوف بخلقه ؟ وكيف يكون هذا بالاهمال - كما قالت الظلمة - ؟ فان قال

(١) الوحل - بفتح الحين - الطين الرقيق جمعه وحول وأوحال .

(٢) الكفاح - بالكسر - الملاقاة وجها لوجه .

(٣) المشفر - بكسر فسكون ففتح - الشفة وتستعمل للبعير الا ان

الامام الصادق عدل المعنى الى خرطوم الفيل إذ هو بمثابة الشفاه ، بل هو شفاهه الحقيقية التي بها يتناول العلف والماء .

قائل : فما باله لم يُخلق ذا عنق كسائر الأنعام ؟ قيل له ان رأس الفيل وأذنيه أمر عظيم ، وثقل ثقيل ، فلو كان ذلك على عنق عظيم ، لهدها وأوهنها ، فجعل رأسه ملتصقاً بجسمه لكيلا يناله منه ما وصفناه ، وخلق له مكان العنق هذا المشفر ليتناول به غذاءه ، فصار - مع عدم العنق - مستوفياً ما فيه بلوغ حاجته .

﴿ حياء الانثى من الفيلة ﴾

انظر الآن كيف جعل حياء الانثى من الفيلة في أسفل بطنها ؟ فاذا هاجت للضراب ارتفع وبرز ، حتى يتمكن الفعل من ضربها . . فاعتبر كيف جعل حياء الانثى من الفيلة على خلاف ما عليه في غيرها من الانعام ثم جعلت فيه هذه الحلة ليتهايئ للامر الذي فيه قوام النسل ودوامه

﴿ الزرافة وخلقتها وكونها ليست من لقاح اصناف شتى ﴾

فكر في خلق الزرافة ، واختلاف اعضائها ، وشبهها باعضاء اصناف من الحيوان : فرأسها رأس فرس ، وعنقها عنق جمل ، وأظلافها أظلاف بقرة ، وجلدها جلد نمر .

وزعم ناس من الجهال بالله عز وجل : ان نتاجها من فحول شتى ، قالوا : وسبب ذلك ان اصنافاً من حيوان البر اذا وردت الماء تنزو على بعض السائمة ، وينتج مثل هذا الشخص الذي هو كالملتقط من اصناف شتى وهذا جهل من قائله ، وقلة معرفة بالباري جل قدسه ، وليس كل صنف من الحيوان يلقح كل صنف ، فلا الفرس يلقح الجمل ، ولا الجمل يلقح البقر ، وانما يكون التلقيح من بعض الحيوان فيما يشاء كانه ويقرب

من خلقه ، كما يلقح الفرس الحمار ، فيخرج بينهما البغل ، ويلقح الذئب الضبع ، فيخرج من بينهما السمع (١) . على انه ليس يكون في الذي يخرج من بينهما عضو كل واحد منهما ، كما في الزرافة ، عضو من الفرس وعضو من الجمل ، واظلاف من البقرة ، بل يكون كالتوسط بينهما الممتزج منها ، كالذي تراه في البغل ، فانك ترى رأسه وأذنيه وكفله (٢) وذنبه وحوافره وسطاً بين هذه الأجزاء من الفرس والحمار وشحيجه (٣) ، كالممتزج من صهيل الفرس ونهيق الحمار ، فهذا دليل على انه ليست الزرافة من لقاح أصناف شتى من الحيوان ، كما زعم الجاهلون ، بل هي خلق عجيب من خلق الله للدلالة على قدرته التي لا يعجزها شيء ، وليعلم انه خالق أصناف الحيوان كلها ، يجمع بين ما يشاء من أعضائها في ايها شاء ويفرق ما شاء منها في ايها شاء . ويزيد في الحلقة ما شاء وينقص منها ما شاء ، دلالة على قدرته على الأشياء ، وانه لا يعجزه شيء اراده جل وتعالى . . فاما طول عنقها والمنفعة لها في ذلك فان منشأها ومرعاها في غياطل (٤) ذوات أشجار شاهقة ، ذاهبة طولاً في الهواء فهي تحتاج الى طول العنق لتتناول بفيها أطراف تلك الأشجار فتقوت من ثمارها .

(١) السمع - بكسر فسكون - ولد الذئب من الضبع والاني سمعة

(٢) الكفل - بفتح تين - من الدابة : العجز أو الردف والجمع اكفال

(٣) الشحيج من شحج البغل : صوت وغلظ صوته .

(٤) الغياطل جمع غياطل وهو الشجر الكثير الملتف .

﴿ القرد وخلقته والفرق بينه وبين الانسان ﴾

تأمل خلقه القرد وشبهه بالانسان في كثير من اعضاءه أعني الرأس والوجه والمنكبين والصدر . وكذلك أحشائه شبيهة ايضاً بأحشاء الانسان وخص مع ذلك بالذهن والفطنة التي بها يفهم عن سائسه ما يؤمى اليه ويحكي كثيراً مما يرى الانسان يفعله . حتى انه يقرب من خلق الانسان وشماله في التدبير في خلقته على ما هي عليه . ان يكون عبرة للانسان في نفسه فيعلم انه من طينة البهائم وسنخها (١) اذ كان يقرب من خلقها هذا القرب . وانه لولا فضيلة فضله بها في الذهن والعقل والنطق كان كبعض البهائم على ان في جسم القرد فضولا اخرى تفرق بينه وبين الانسان كالخطم (٢) والذنب المسدل والشعر المجال للجسم كله . وهذا لم يكن مانعا للقرد ان يلحق بالانسان لو اعطى مثل ذهن الانسان وعقله ونطقه والفصل الفاصل بينه وبين الانسان - في الحقيقة - هو النقص في العقل والذهن والنطق .

﴿ اكساء أجسام الحيوانات وخلقة اقدامها بعكس الانسان ﴾

﴿ وأسباب ذلك ﴾

انظر يا مفضل الى لطف الله جل اسمه بالبهائم كيف كسيت اجسامها هذه السكسوة من الشعر والوبر والصوف لتقيها من البرد وكثرة الآفات البست الاطلاف والحوافر والاختفاف لتقيها من الخفاء (٣) اذ كانت لا

(١) السنخ - بالكسر - الاصل والجمع استناخ وسنوخ .

(٢) الخطم من الدابة : مقدم انفها وفمها .

(٣) الخفا هو المشي بلا خوف ولا نعل .

أيدي لها ولا أكف ولا أصابع مهيأة للغزل والنسج فكفوا بان جعل
كسوتهم في خلقهم باقية عليهم ما بقوا لا يحتاجون إلى تجديدها واستبدال بها
فاما الانسان فانه ذو حيلة وكف مهيأة للعمل . فهو ينسج ويغزل .
ويتخذ لنفسه الكسوة . ويستبدل بها حالا بعد حال . وله في ذلك صلاح
من جهات من ذلك انه يشتغل بصناعة اللباس عن العبث وما تخرجه اليه
الكفاية . ومنها انه يستريح الى خلع كسوته اذا شاء ولبسها اذا شاء ومنها
ان يتخذ لنفسه من الكسوة ضروبا لها جمال وروعة فيتلذذ بلبسها وتبديلها
وكذلك يتخذ بالرفق من الصنعة ضروبا من الخفاف (١) والنعال بقي بها
قدميه . وفي ذلك معاش لمن يعمله من الناس ومكاسب يكون فيها معاشهم
ومنها اقواتهم واقوات عيالهم . فصار الشعر والوبر والصوف يقوم للبهائم
مقام الكسوة والأظلاف (٢) والحوافر والاختاف مقام الجداء .

﴿ موارد البهائم عند احساسها بالموت ﴾

فكر يا مفضل في خلقة عجيبة جعلت في البهائم ، فانهم يوارون (٣)
انفسهم اذا ماتوا ، كما يوارى الناس موتاهم ، وإلا فابن جيف هذه
الوحوش والسباع وغيرها ، لا يرى منها شيء ، وليست قليلة فتخفى
لقلتها ؟ بل لو قال قائل : انها اكثر من الناس لصدق .

-
- (١) الخفاف جمع خف - بالضم - وهو ما يلبس بالرجل .
(٢) الاظلاف جمع ظلف - بالكسر - وهو لما اجتر من الحيوانات
كالبقرة والظبي بمنزلة الحافر للفرس .
(٢) يوارون انفسهم : يخفونها .

فاعتبر في ذلك بما تراه في الصحارى والجبال من اسراب الطباء (١) والمها (٢) والحمير الوحش والوعول (٣). والأيائل (٤) وغير ذلك من الوحوش واصناف السباع من الأسود والضباع والذئاب والنمور وغيرها ، وضروب الهوام والحشرات ودواب الأرض ، وكذلك اسراب الطير من الغربان والقطا والاوز والسكرابي (٥) والحمام وسباع الطير جميعاً ، وكلها لا يرى منها اذا ماتت إلا الواحد بعد الواحد يصيده قانص أو يفترسه سبع ، فاذا أحسوا بالموت كمنوا في مواضع خفية فيموتون فيها ، ولولا ذلك لامتلأت الصحارى منها حتى تفسد رائحة الهواء وتحدث الأمراض والوباء فانظر إلى هذا بالذي يخلص اليه الناس : وعمله بالتمثيل (٦) الأول الذي مثل لهم كيف جعل طبعاً واذكاراً (٧) في البهائم وغيرها ، ليسلم

(١) الطباء جمع طيبة وهي انثى الغزال .

(٢) المها : جمع مهاء وهي البقرة الوحشية .

(٣) الوعول جمع وعل وهو تيس الجبل له قرنان قويان منحنيان كسيفين أحدين .

(٤) الأيائل جمع أيل - بفتح فتشديد - حيوان من ذوات الظلف للذكور منه قرون منشعبة لا تجويف فيها ، أما الاناث فلا قرون لها .

(٥) السكرابي جمع كركي - بضم فسكون فسكسر - طائر كبير أغبر اللون طويل العنق والرجلين أبتز الذنب قليل اللحم .

(٦) المراد بالتمثيل ما ذكره الله تعالى في قصة قابيل .

(٧) في الأصل المطبوع اذكاراً بالبدال المهملة ، ولكن الازكار أوضح وهو من قولهم ذكر الشيء : حفظه في ذهنه .

الناس من معرفة (١) ما يحدث عليهم من الأمراض والفساد .

﴿ الفطن التي جعلت في البهائم : الايل والثعلب والدلفين ﴾

فكر يا مفضل في الفطن التي جعلت في البهائم لمصلحتها ، بالطبع والخلقة ، لطفاً من الله عز وجل لهم ، لئلا يخلو من نعمه جل وعز احد من خلقه لا بعقل وروية ، فان (الأيل) يأكل الحيات فيعطش عطشاً شديداً فيمتنع من شرب الماء ، خوفاً من أن يدب السم في جسمه فيقتله ، ويقف على الغدير وهو مجهود عطشاً ، فيعجز عجزاً عالياً ، ولا يشرب منه ، ولو شرب لمات من ساعته .

فانظر إلى ما جعل من طباع هذه البهيمة ، من تحمل الظلم الغالب الشديد ، خوفاً من المصرة في الشرب ، وذلك مما لا يكاد الانسان العاقل المميز يضبطه من نفسه .

و (الثعلب) اذا اعوزه الطعم ، تماوت ونفخ بطنه ، حتى يحسبه الطير ميتاً ، فاذا وقعت عليه لتنهشه ، وثب عليها فاخذها . . فمن أعان الثعلب العديم النطق والروية بهذه الحيلة ، إلا من توكل بتوجيه الرزق له من هذا وشبهه . فانه لما كان الثعلب يضعف عن كثير مما تقوى عليه السباع من مساورة الصيد ، اعين بالدهاء والفتنة والاختيال لمعاشه .

و (الدلفين) (٢) يلتمس صيد الطير ، فيكون حيلته في ذلك أن

(١) المعرفة : الأمر القبيح والمساءة والاثم والاذى .

(٢) الدلفين - بضم فسكون - دابة بحرية كبيرة والجمع دلافين ، واللفظ دخيل ومرادفه في العربية الدخس - بضم ففتح - .

يأخذ السمك فيقتله ويسرجه (١) حتى يطفو على الماء ثم يكن تحته ويشور الماء الذي عليه حتى لا يتبين شخصه ، فاذا وقع الطير على السمك الطافي وثب اليها فاصطادها .

فانظر إلى هذه الحيلة كيف جعلت طبعاً في هذه البهيمة لبعض المصاحبة .

﴿ التنين والسحاب ﴾

قال المفضل فقلت : اخبرني يا مولاي عن التنين (١) والسحاب ، فقال عليه السلام : إن السحاب كالوكل به ، يختطفه حيناً ثقفه (٣) كما يختطف حجر المغناطيس الحديد ، فهو لا يطلع رأسه في الأرض خوفاً من السحاب ، ولا يخرج إلا في القيظ (٤) مرة إذا صحت السماء ، فلم يكن فيها نكتة (٥) من غيمة ، قلت فلم وكل السحاب بالتنين يرصده ويختطفه اذا وجده ؟ قال : ليدفع عن الناس مضرته (٦) .

(١) في الأصل المطبوع يشرحه بالشين ، لكن كلمة يسرجه هنا أكثر أداء للمعنى المقصود .

(٢) التنين - بالكسر - الحيلة العظيمة والجمع تنانين .

(٣) ثقفه : أدركه وظفر به .

(٤) القيظ : حيم الصيف وشدة الحر والجمع أقياظ وقيوظ .

(٥) النكتة : النقطة السوداء في الأبيض او البيضاء في الأسود

والجمع نكت ونكات .

(٦) الذي يظهر ان هذا الأمر الغريب كان معروفاً عند العرب الأوائل ، وقد ورد ذكره في الشعر القديم ، كالذي جاء في قصيدة للشاعر العباسي اسماعيل بن محمد المعروف بالسيد الحميري المتوفى سنة ١٧٣ ، فقال من تلك القصيدة التي يذكر فيها إحدى فضائل الامام علي : —

﴿ في الذرة والنمل واسد الذباب والعنكبوت وطبائع كل منهما ﴾

قال المفضل فقلت : قد وصفت لي يا مولاي من أمر البهائم ما فيه معتبر لمن اعتبر ، فصف لي الذرة والنملة والطير ، فقال عليه السلام يا مفضل تأمل وجه « الذرة » الحقيمة الصغيرة هل تجد فيها نقصا عما فيه صلاحها ، فن ابن هذا التقدير والصواب في خلق الذرة ؟ إلا من التدبير القائم في صغير الخلق وكبيره .

انظر الى « النمل » واحتشاده في جمع القوت واعداده ، فانك ترى الجماعة منها اذا نقلت الحب الى زيتها (١) بمنزلة جماعة من الناس ينقلون الطعام او غيره ، بل للنمل في ذلك من الجد والتشمير ما ليس للناس مثله .. أما تراهم يتعاونون على النقل كما يتعاون الناس على العمل ، ثم يعمدون الى الحب فيقطعونه قطعاً . لا كيلاً ينبت فيفسد عليهم ، فان أصابه ندى اخرجوه فنشروه حتى يجف ، ثم لا يتخذ النمل الزية إلا في نشر (٢) من الارض كيلاً يفيض السيل فيغرقها ، وكل هذا منه بلا عقل ولا روية ، بل خلقه

-
- ألا يا قوم للعجب العجيب لحف أبي الحسين وللحجاب
عدو من عدات الجن عبد بعيد في المرادة من صواب
كرهه اللون اسود وذوبصيص حديد الناب أزرق ذو لعاب
أتى خفا له فانساب فيه لينهش رجله منها بناب
فقض من السماء له عقاب من العقبان او شبه العقاب
فطار به فخلق ثم أهوى به للارض من دون السحاب
(١) الزية - بضم فسكون - : الراية لا يعلوها ماء جمعها زبي .
(٢) النشر - بفتحتين - المكان المرتفع جمعه نشاز وانشاز .

خلق عليها لمصلحة من الله جل وعز .

انظر الى هذا الذي يقال له الليث (١) وتسميه العامة « أسد الذباب » وما اعطى من الحيلة والرفق في معاشه ، فانك تراه حين يحس بالذباب قد وقع قريباً منه . تركه ملياً حتى كأنه موات لا حراك به ، فاذا رأى الذباب قد اطمان وغفل عنه ، دب ديباً دقيقاً ، حتى يكون منه بحيث تناله وثبته ، ثم يثب عليه فيأخذه ، فاذا أخذه اشتمل عليه بجسمه كله ، مخافة أن ينجومنه . فلا يزال قابضاً عليه ، حتى يحس بانه قد ضعف واسترخى ثم يقبل عليه فيفترسه ، ويحیی بذلك منه .

فاما « العنكبوت » فانه ينسج ذلك النسج ، فيتخذنه - شركاً ومصيدة للذباب ، ثم يكن (٢) في جوفه ، فاذا نشب فيه الذباب أحال (-) عليه يلدغه ساعة بعد ساعة ، فيعيش بذلك منه .

فذلك (٤) يحكي صيد السكالب والفهود ، وهذا (٥) يحكي صيد الاشراك والحبائل .

فانظر الى هذه الدويبة الضعيفة ، كيف جعل في طبعها ما لا يبلغه الانسان إلا بالحيلة واستعمال الآلات فيها ؟ فلا تزدري بالشئ اذا كانت

(١) الليث : ضرب من العناكب والجمع ليوث ومليثة .

(٢) في الاصل المطبوع يتمكن وهو خطأ .

(٣) أجال : أقبل ووثب .

(٤) يعني به أسد الذباب .

(٥) يعني به العنكبوت وفي نسخة - هكذا - .

العبرة فيه واضحة كالذرة والتملة وما أشبه ذلك ، فان المعنى النفيس قد يمثل بالشيء الحقير ، فلا يضع منه ذلك (١) كما لا يضع من الدينار - وهو من ذهب - أن يوزن بمقال من حديد .

﴿ جسم الطائر وخلقته ﴾

تأمل يا مفضل جسم الطائر وخلقته ، فانه حين قدر أن يكون طائرا في الجو ، خفف جسمه وادمج (٢) خلقه ، واقتصر به من القوائم الأربع على اثنتين ، ومن الاصابع الخمس على أربع ، ومن منفذين للزبل والبول على واحد يجمعهما ، ثم خلق ذا جؤجؤ (٣) محدد ، ليسهل عليه ان يخرج الهواء كيف ما أخذ فيه ، كما جعلت السفينة بهذه الهيئة ، لتشق الماء وتنفذ فيه ، وجعل في جناحيه وذنبه ريشات طوال متان ، لينهض بها للطيران ، وكسا (٤) كله الريش ، ليتداخله الهواء فيقله (٥) . ولما قدر أن يكون طعمه الحب واللحم يبلعه بلعاً بلا مضغ ، نقص من خلقه الانسان وخلق له منقار صلب جاسي يتناول به طعمه ، فلا ينسحج (٦) من لقط الحب ، ولا يتقصف (٧) من نهش اللحم ، ولما عدم الاسنان ، وصار

(١) اي لا ينقص من قدر المعنى النفيس تمثيله بالشيء الحقير .

(٢) ادمج خلقه : لفته وأحسنه .

(٣) الجؤجؤ من الطائر والسفينة : الصدر والجمع جآجى .

(٤) في الاصل كتبت بالالف المقصورة وهي خطأ .

(٥) يقله : يحمله ويرفعه .

(٦) ينسحج : أي ينتشر .

(٧) يتقصف : أي يتكسر .

يزدرد الحب صحيحاً واللحم غريضاً (١) أعين بفضل حرارة في الجوف
 تطحن له الطعام طحناً يستغنى به عن المضغ ، واعتبر ذلك بان عجم العنب (٢)
 وغيره ، يخرج من أجواف الانس صحيحاً ، ويطحن في أجواف الطير لا
 يرى له أثر ، ثم جعل مما يبيض بيضاً ، ولا يلد ولادة ، لكيلا يثقل عن
 الطيران ، فانه لو كانت الفراخ في جوفه تمسك حتى تستحكم ، لاثقلته
 وعاقته عن النهوض والطيران ، فجعل كل شيء من خلقه مشاكلاً للامر
 الذي قدر أن يكون عليه . ثم صار الطائر السائح في هذا الجو يقعد على بيضه
 فيحضنه اسبوعاً وبعضها اسبوعين وبعضها ثلاثة أسابيع ، حتى يخرج الفرخ
 من البيضة ، ثم يقبل عليه فيزقه الريح لتبسح حوصلته للغذاء ، ثم يريه
 ويغذيه بما يعيش به . فمن كلفه ان يلقط الطعام والحب يستخرجه ، بعد
 أن يستقر في حوصلته ، ويغذوه فراخه . . . ولاي معنى يحتمل هذه
 المشقة ، وليس بذى روية ولا تفكر ، ولا يأمل في فراخه ما يؤمل الانسان
 في ولده من العز والرغد (٣) وبقاء الذكر . . ؟ فهذا من فعله يشهد انه
 معطوف على فراخه ، لعله لا يعرفها ولا يفكر فيها ، وهي دوام النسل
 وبقاؤه لطفاً من الله تعالى ذكره .

﴿ الدجاجة وتهيجها لحضن البيض والتفريخ ﴾

انظر الى « الدجاجة » كيف تهيج لحضن البيض والتفريخ ، وليس

(١) الغريض : كل أبيض طري . .

(٢) عجم العنب : ما كان في جوف العنب من النوى الصغير .

(٣) الرغد - بالكسر - المعونة والعطاء والجمع أرفاد ورغود .

لها بيض مجتمع ولا وكر موطن ، بل تنبعث وتنتفخ وتقوى (١) وتمتنع من
الطعم ، حتى يجمع لها البيض ، فتحضنه وتفرخ . . فلم كان ذلك منها إلا
لأقامة النسل ؟ ومن أخذها بأقامة النسل ولا روية لها ولا تفكير ، لولا
إنها مجبولة على ذلك ؟ . .

﴿ خلق البيضة والتدبير في ذلك ﴾

إعتبر بخلق البيضة ، وما فيها من المحّ (٢) الأصفر الخائر (٣) والماء
الأيض الرقيق ، فبعضه ينشوء منه الفرخ ، وبعضه ليغتذي به ، إلى أن
تنقاب عنه البيضة ، وما في ذلك من التدبير ، فانه لو كان نشوء (٤) الفرخ
في تلك القشرة المستحفظة (٥) التي لا مساغ لشيء اليها ، جعل معه في
جوفها من الغذاء ما يكتفي به إلى وقت خروجه منها ، كمن يجلس في حبس
حصين لا يوصل إلى من فيه ، فيجعل معه من القوت ما يكتفي به إلى وقت
خروجه منه .

﴿ حوصلة الطائر ﴾

فكر يا مفضل في حوصلة الطائر ، وما قدر له ، فان مسلك الطعم
(١) في الاصل كتبت الالف مشالة ، وتقوى من القوى من القوى
أي الجوع ، فكان الدجاجة تبث جائعة . . وفي نسخة تقوى أي تصيح
(٢) المحّ - بالضم - صفرة البيض ، وفي بعض النسخ بالحاء المعجمة
أي نخ .

(٣) خثر اللبن : نخن واشتد فهو خائر .

(٤) سقطت الهمزة من الأصل .

(٥) المستحفظة من استحفظه السر أو المال : سأله ان يحفظه .

إلى القانصة (١) ضيق ، لا ينفذ فيه الطعام إلا قليلا قليلا ، فلو كان الطائر لا يلقط حبة ثانية ، حتى تصل الاولى إلى القانصة ، لطال عليه ، ومتى كان يستوفي طعمه ؟ . فأنما يختلسه اختلاسا ، لشدة الحذر ، فجعلت له الحوصلة كالخلاة (٢) المعلقة امامه ، ليوعى فيها ما ادرك من الطعام بسرعة ، ثم تنفذه إلى القانصة على مهل ، وفي الحوصلة ايضا خلة اخرى ، فان من الطائر ما يحتاج الى أن يزق فراخه فيكون رده للطعم من قرب اسهل عليه

﴿ اختلاف ألوان الطير وعلة ذلك ﴾

قال المفضل فقلت : ان قومًا من المعطلة يزعمون ان اختلاف الألوان والاشكال في الطير انما يكون من قبل إمتزاج الاخلاط ، واختلاف مقاديرها المرج (٣) والأهال .

قال : يا مفضل هذا الوشي الذي تراه في البطاويس والدراج (٤) والتدارج على استواء ومقابلة ، كنعجو ما يخط بالأقلام ، كيف يأتي به الامتزاج المهمل على شكل واحد لا يختلف ، ولو كان بالاهمال لعدم الاستواء ولكن مختلفا .

﴿ ريش الطائر ووصفه ﴾

تأمل ريش الطير كيف هو . . ؟ فانك تراه منسوجا كنسج الثوب

(١) القانصة للطير كالمعدة للانسان جمعها قوائص .

(٢) الخلاة : ما يجعل فيه العلف ويلقى في عنق الدابة والجمع مخال

(٣) المرج - بالتحريك - الاضطراب واللبس والفساد والاختلاط

وفي بعض النسخ بالزاء المعجمة . . والاول اظهر وأجلى للمعنى المقصود

(٤) الدراج طائر تقدم ذكره .

من سلوك (١) دقاق ، قد ألف بعضه إلى بعض ، كتأليف الخيط الى الخيط والشعرة إلى الشعرة ، ثم ترى ذلك النسج اذا مددته يفتح قليلا ولا ينشق لتداخله الريح ، فيقل الطائر اذا طار ، وترى في وسط الريشة عموداً غليظاً متيناً قد نسج عليه الذي هو مثل الشعر لمسكه بصلابته ، وهو القصبة التي في وسط الريشة ، وهو مع ذلك أجوف ، ليخف على الطائر ولا يعوقه عن الطيران .

﴿ الطائر الطويل الساقين والتدبير في ذلك ﴾

هل رأيت يا مفضل هذا الطائر الطويل الساقين (٢) وعرفت ماله من المنفعة في طول ساقيه ، فانه أكثر ذلك في ضخام (٣) من الماء فتراه بساقين طويلين ، كانه ربيثة (٤) فوق مرقب (٥) وهو يتأمل ما يدب في الماء ، فاذا رأي شيئاً مما يتقوت به ، خطأخطوات رقيقاً حتى يتناولوه ، ولو كان قصير الساقين وكان يخطو نحو الصيد ليأخذه ، يصيب بطنه الماء فيثور ويندعر منه ، فينفرق عنه ، فخلق له ذلك العمودان ليدرك بهما حاجته ولا يفسد عليه مطلبه .

(١) السلوك جمع سلك وهو الخيط ينظم فيه الخرز ونحوه .

(٢) ينطبق الوصف الذي ذكره الامام الصادق للطائر الطويل

الساقين على بعض الطيور المائية كالنحام والانيس .

(٣) الضحضاح : الماء اليسير او القريب القعر .

(٤) الربيثة : العين التي ترقب ، أو الطليعة الذي ينظر للقوم لئلا

يذهبهم عدو ، ولا يكون الا على جبل .

(٥) المرقب : الموضع المرتفع يعلوه الرقيب جمعه مراقب .

تأمل ضروب التدبير في خلق الطائر ، فانك تجد كل طائر طويل الساقين طويل العنق ، وذلك ليتمكن من تناول طعمه من الارض ولو كان طويل الساقين قصير العنق ، لما استطاع أن يتناول شيئاً من الارض ، وربما أُعين مع طول العنق بطول المناقير ليزداد الأمر عليه سهولة وإمكاناً أفلا ترى انك لا تفتش شيئاً من الخلق إلا وجدتته على غاية الصواب والحكمة

(العصافير وطلبها للاكل)

انظر إلى العصافير ، كيف تطلب أكلها بالنهار فهي لا تفقده ولا تجده مجموعاً معداً ، بل تناله بالحركة والطلب ، وكذلك الخلق كله فسبحان من قدر الرزق كيف فرقه . فلم يجعل مما لا يقدر عليه ، اذ جعل بالخلق حاجة اليه ، ولم يجعل مبدولاً ينال بالهوين (١) اذ كان لا صلاح في ذلك فانه لو كان يوجد مجموعاً معداً كانت البهائم تنقلب عليه ، ولا تنقلع عنه حتى تبشم (٢) فتهلك . وكان الناس أيضاً يصيرون بالفراغ الى غاية الاشر والبطر ، حتى يكثر الفساد وتظهر الفواخش .

(معاش اليوم والهام والخفاش)

أعلمت ما طعم هذه الأصناف من الطير التي لا تخرج إلا بالليل ، كمثل اليوم والهام (٣) والخفاش ؟ ..

(١) الهوين : النودة والرفق ، وهي تصغير الهوني ، والهوني تأنيث الالهون . . وقد كتبت الهوين في الاصل هكذا : الهويني .

(٢) تبشم أي تتخيم من الطعام .

(٣) الهام جمع هامة : نوع من اليوم الصغير تألف القبور والاماكن الخربة ، وتنظر من كل مكان أين أدت اذارت رأسها ، وتسمى أيضاً الصدى

قلت : لا يا مولاي .

قال : إن معاشها من ضروب تلتشر في الجو من البعوض والفراس وأشباه الجراد واليعاسيب (١) . وذلك ان هذه الضروب مبثوثة في الجو لا يخلو منها موضع . . واعتبر ذلك بانك اذا وضعت سراجاً بالليل في سطح أو عرصة دار ، اجتمع عليه من هذه الضروب شيء كثير . . فمن أين يأتي ذلك كله ، إلا من القرب ؟ فان قال قائل : أنه يأتي من الصحاري والبراري ، قيل له : كيف يوافي تلك الساعة من موضع بعيد ، وكيف يبصر من ذلك البعد سراجاً في دار محفوفة بالدور فيقصد اليه ، مع ان هذه عياناً تنهافت على السراج من قلوب ، فيدل ذلك على انها منتشرة في كل موضع من الجو ، فهذه الأصناف من الطير تلتسها اذا خرجت فتتقوت بها .

فانظر كيف وجه الرزق لهذه الطيور التي لا تخرج إلا بالليل من هذه الضروب المنتشرة في الجو ، واعرف ذلك المعنى في خلق هذه الضروب المنتشرة ، التي عسى ان يظن ظان انها فضل لا معنى له . .

﴿ خلقه الخفاش ﴾

خلق الخفاش خلقه عجيبة بين خلقه الطير وذوات الأربع ، هو الى ذوات الأربع أقرب ، وذلك انه ذو أربعين ناشرتين (٢) واسنان ووبر وهو يلد ولاداً ويرضع ويبول ، ويمشي اذا مشى على أربع ، وكل هذا

(١) اليعاسيب جمع يعسوب وهو ذكر النحل وأميرها .

(٢) الناشز : ما كان نائماً مرتفعاً عن مكانه . . وفي نسخة ناشر

بالراء أى مبسوط .

خلاف صفة الطير ، ثم هو ايضاً مما يخرج بالليل ، ويتقوت بما يسرى (١) في الجو من الفراش وما اشبهه ، وقد قال قائلون انه لا طعم للخفاش وان غذاءه (٢) من النسيم وحده ، وذلك يفسد ويبطل من جهتين : أحدهما خروج الثفل (٣) والبول منه ، فان هذا لا يكون من غير طعم ، والاخرى انه ذو أسنان ؛ ولو كان لا يطعم شيئاً لم يكن للاسنان فيه معنى ، وليس في الخلقة شيء لا معنى له ، وأما المآرب فيه فمعروفة ، حتى ان زبله يدخل في بعض الأعمال ، ومن أعظم الارب فيه خلقته العجيبة الدالة على قدرة الخالق جل ثناؤه ، وتصرفها فيما شاء كيف شاء لضرب من المصاحبة .

﴿ حيلة الطائر ابو تمرة بالحسكة ومنفعتها ﴾

فاما الطائر الصغير الذي يقال له (ابن تمرة) (٤) فقد عشن في بعض الأوقات في بعض الشجر ، فنظر إلى حية عظيمة قد أقبلت نحو عشه فاغرة فاها ، تبعه ليتبعه ، فبينما هو يتقلب ويضطرب في طلب حيلة منها إذ وجد حسكة ، فحملها فالقها في فم الحية فلم تزل الحية تلتوي وتتقلب حتى ماتت . أفرايت لو لم اخبرك بذلك ، كان يخطر ببالك او ببال غيرك انه يكون من حسكة مثل هذه المنفعة ، أو يكون من طائر صغير او كبير

(١) يسري : يسير في الليل .

(٢) سقطت الهمزة في الطبعة الاولى .

(٣) الثفل - بالضم - الكدرة المستقرة في اسفل الشيء .

(٤) في الاصل المطبوع أبو تمرة وهو غير صحيح ، وفي نسخة

البهار : ابن تمرة . وتمرة او ابن تمرة طائر اصغر من العصفور .

مثل هذه الحيلة ... اعتبر بهذا وكثير من الأشياء يكون فيها منافع لا تعرف إلا بمجاذب يحدث أو خبر يسمع به .

﴿ النحل : غسله وبيوته ﴾

انظر إلى النحل واحتشاده في صناعة العسل ، وتهيئة البيوت المسدسة وما ترى في ذلك من دقائق الفطنة ، فانك اذا تأملت العمل رأيته عجيباً لطيفاً ، واذا رأيت المعمول وجدته عظيماً شريفاً موقعه من الناس ، واذا رجعت الى الفاعل الفيته غيباً جاهلاً بنفسه (١) فضلاً عما سوى ذلك ، ففي هذا أوضح الدلالة على ان الصواب والحكمة في هذه الصنعة ليس للنحل بل هي للذي طبعه عليها ، وسخره فيها لمصلحة الناس .

﴿ الجراد وبلاؤه ﴾

انظر الى هذا الجراد ما أضعفه وأقواه ! . فانك اذا تأملت خلقه رأيته كاضعف الأشياء وان دلفت (٢) عساكره نحو بلد من البلدان لم يستطع أحد أن يحميه منه . ألا ترى أن ملكاً من ملوك الأرض لو جمع خيله ورجله (٣) ليحمي بلاده من الجراد لم يقدر على ذلك . أفليس من الدلائل

(١) أي ليس له عقل يتصرف في سائر الأشياء على نحو تصرفه في ذلك الأمر المخصوص ، فظهر ان خصوص هذا الأمر إلهام من مدبر حكيم او خلقة وطبيعة جبله عليها في شأن مصلحته الخاصة ، مع كون هذا الحيوان غافلاً عن المصلحة أيضاً ، ولعل هذا يؤيد ما يقال ان الحيوانات العجم غير مدركة للكليات . « من تعليقات البحار »

(٢) دلف دلفاً ودلفاناً : مشى كالقيد وقارب الخطو في مشيه .

(٣) الرجل - بالفتح - جمع راجل وهو من يمشي على رجله لاراكبا

على قدرة الخالق أن يبعث أضعف خلقه إلى أقوى خلقه ، فلا يستطيع دفعه
﴿ كثرة الجراد ﴾

انظر اليه كيف ينساب على وجه الأرض مثل السيل ، فيغشى
السهل والجبل والبدو والحضر ، حتى يستر نور الشمس بكثرته ، فلو كان
هذا مما يصنع بالأيدي ، متى كان تجتمع منه هذه الكثرة ؟ وفي كم سنة
كان يرتفع ؟ فاستدل بذلك على القدرة التي لا يؤدها شيء ، ولا يكثر عليها
﴿ وصف السمك ﴾

تأمل خلق السمك ومشاكلته للأمر الذي قدر أن يكون عليه ،
فانه مُخلق غير ذي قوائم ، لانه لا يحتاج إلى المشي ، اذ كان مسكنه الماء
وُخلق غير ذي ربة ، لانه لا يستطيع أن يتنفس وهو منعّس في الالجة ،
وُجعل له مكان القوائم أجنحة شداد يضرب بها في جانبيه ، كما يضرب
الملاح بالمجاديف من جانبي السفينة ، وكسا (١) جسمه قشوراً متناמתداخلة
كتداخل الدروع والجواشن (٢) لتقيه من الآفات ، فأعين بفضل حس
في الشم ، لأن بصره ضعيف ، والماء يحجبه ، فصار يشم الطعم من البعد
البعيد ، فينتجه (٣) فيتبعه ، وإلا فكيف يعلم به وبموضعه ؟ وأعلم ان من
فيه إلى صماخه (٤) منافذ ، فهو يعبّ الماء بفيه ويرسله من صماخه فيتروح

(١) في الاصل كتبت الالف المقصورة .

(٢) الجواشن جمع جوشن وهو الدرع أو الصدر .

(٣) ينتجع : يطلب الكلاء في موضعه .

(٤) الصماخ - بالكسر - خرق الاذن الباطن الماسي الى الرأس ،
والجمع صمخ واصمخة .

إلى ذلك ، كما يتروح غيره من الحيوان الى تنسم هذا النسيم .

﴿ كثرة نسل السمك وعلّة ذلك ﴾

فكر الآن في كثرة نسله وما أُخصّ به من ذلك ، فانك ترى في جوف السمكة الواحدة من البيض^١ ما لا يحصى كثرة ، والعلّة في ذلك أن يتسع لما يغتذى به من أصناف الحيوان ، فإن أكثرها يأكل السمك ، حتى ان السباع أيضاً في حافات الآجام (١) عاكفة على الماء أيضاً كي ترصد السمك ، فاذا مر بها خطفته ، فلما كانت السباع تأكل السمك ، والطير يأكل السمك ، والناس يأكلون السمك ، والسمك يأكل السمك ، كان من التدبير فيه أن يكون على ما هو عليه من الكثرة .

﴿ سعة حكمة الخالق وقصر علم الخلقين ﴾

فاذا أردت أن تعرف سعة حكمة الخالق ، وقصر علم الخلقين ، فانظر إلى ما في البحار من ضروب السمك ودواب الماء والاصداف والاصناف التي لا تحصى ، ولا تعرف منافعها إلا الشيء بعد الشيء يدركه الناس بأسباب تحدث ، مثل القرمز (٢) فانه لما عرف الناس صبغه ، بان كلبّة تجول على شاطئ البحر فوجدت شيئاً من الصنف الذي يسمى الحلزون (٣) ، فاكلته فاخضب خطمها (٤) بدمه فنظر الناس الى حسنه

(١) الآجام جمع للأجمة : الشجر الكثير الملتف .

(٢) القرمز : صبغ احمر .

(٣) الحلزون : دويبة تكون في صدف وهي المعروفة بالزراق .

(٤) الخطم مقدم انف الدابة وفيها .

فأخذوه صبغاً (١) ، واشباه هذا مما يقف الناس عليه حالا بعد حال وزماناً بعد زمان (٢) .

قال المفضل : وحان وقت الزوال ، فقام مولاي عليه السلام إلى الصلاة وقال : بكر إلى غداً إنشاء الله تعالى . . فانصرفت وقد تضاعفت سروري بما عرفنيه ، مبتهجاً بما منحنيه ، حامداً لله على ما آتانيه ، فبت ليلتي مسروراً مبتهجاً .

(١) يظهر من كلام الامام عليه السلام اتحاد القرمز والخزون ، ويحتمل أن يكون المراد ان من صبغ الخزون تفتن الناس باعمال القرمز للصبغ ، لما فيهما من تشابه .

(٢) ليس العجب من خالق أمثال هذه الذرة والدودة وأصناف الأسماك الغريبة التي اختلفت اشكالها وتنوعت الحكمة فيها ، وليس العجب أن يهتدي الى الحكمة في كل واحد من تلك المصنوعات بعد وجودها وتكوينها ، وانما العجب ممن ينكر فاطر السموات والارض وما فيهن وما بينهن ، مع انقار الصنعة واحكام الحلقة وبداعة التركيب ، ولو نظر الجاحد الى نفسه مع غريب الصنع وتمام الخلق ، لكان اكبر برهان على الوجود ووحدانية الوجود . « الامام الصادق للعظفر ج ١ ص ١٧٧ »

المجلد الثالث

فلما كان اليوم الثالث بكرت إلى مولاي فاستؤذن لي فدخلت
فاذن لي بالجلوس فجلست ، فقال عليه السلام : —

أحمد لله الذي اصطفانا ولم يصطف علينا ، اصطفانا بعلمه (١) ،
وأيدنا بحلمه (٢) من شدة عنا (٣) فالنار مأواه ، ومن تقياً بظل دوحتنا
فالجنة مثواه . . قد شرحت لك يا مفضل خلق الانسان ، وما دبر به ،
وتنقله في أحواله ، وما فيه من الاعتبار ، وشرحت لك امر الحيوان . .
وأنا ابتدىء الآن بذكر السماء والشمس والقمر والنجوم والفلك والليل
والنهار والحر والبرد والرياح والجواهر الأربعة الأرض والماء والهواء
والنار والمطر والصخر والجبال والطين والحجارة والنخل والشجر وما في
ذلك من الأدلة والمعبر .

﴿ لون السماء وما فيه من صواب التدبير ﴾

فكر في لون السماء وما فيه من صواب التدبير ، فان هذا اللون
أشد الألوان موافقة وتقوية للبصر ، حتى ان من صفات الأطباء لمن
أصابه شيء أضر ببصره ادمان النظر إلى الخضرة وما قرب منها إلى السواد
(١) اصطفانا اي اختارنا وفضلنا على الخلق ، بان اعطانا من علمه
ما لم يعط أحداً .

(٢) ايدنا بحلمه أي قوانا على تبليغ الرسالة بما جلائنا به من حامي لنصير
على ما يلقانا من أذى الناس وتكذيبهم .
(٣) شدة عنا : ندر عنا وانفرد .

وقد وصف الخذاق منهم لمن كلَّ بصره الاطلاع في إجابة (١) خضراء مملوءه ماء آ ، فانظر كيف جعل الله جل وتعالى أديم السماء بهذا اللون الأخضر إلى السواد ليمسك الأبصار المتقلبة عليه ، فلا ينكأ فيها بطول مباشرتها له فصار هذا الذي أدركه الناس بالعكر والروية والتجارب ، يوجد مفروغاً منه في الخلقة حكمة بالغة (٢) ليعتبر بها المعتبرون ، ويفكر فيها الملحدون ، قاتلهم الله أنى يؤفكون (٣) .

﴿ طلوع الشمس وغروبها والمنافع في ذلك ﴾

فكر يا مفضل في طلوع الشمس وغروبها ، لأقامة دولتي النهار والليل ، فلو لا طلوعها لبطل أمر العالم كله ، فلم يكن الناس يسعون في معاشهم ، ويتصرفون في أمورهم ، والدنيا مظلمة عليهم ، ولم يكونوا يتهنون بالعيش مع فقدهم لذة النور وروحه . . والارب في طلوعها ظاهر مستغنى بظهوره عن الاطناس في ذكره ، والزيادة في شرحه . . بل تأمل المنفعة في غروبها ، فلو لا غروبها لم يكن للناس هدوء ولا قرار مع عظم حاجتهم إلى الهدوء والراحة لسكون ابدانهم ، وجموح حواسهم (٤) وانبعاث القوة الهاضمة لهضم الطعام ، وتنفيذ الغذاء إلى الأعضاء ، ثم كان الحرص يستحملهم من مداومة العمل ، ومطاولته على ما يعظم نكايته في ابدانهم ، فان كثيراً

(١) الاجانة - بكسر ف وتشديد - إناء تغسل فيه الثياب والجمع أجاجين
 (٢) خبر مبتدأ محذوف أو بالنصب على الحالية أو لكونه مفعولاً لأجله
 (٣) يؤفكون : يكذبون .

(٤) الجموم مصدر جم تقول جم القوم : استراحوا وكثروا .

من الناس لو لا جثوم (١) هذا الليل بظلمته عليهم ، لم يكن لهم هدوء ولا قرار ، حرصاً على الكسب والجمع والادخار ، ثم كانت الأرض تستحى بدوام الشمس بضياءها ، ويحى كل ما عليها من حيوان ونبات ، فقدرها الله بحكمته وتديره ، تطلع وقتاً وتغرب وقتاً ، بمنزلة سراج يرفع لأهل البيت نارة ليقضوا حوائجهم ، ثم يغيب عنهم مثل ذلك ليهدؤا ويقروا ، فصار النور والظلمة مع تضادها منقادين متظاهرين على ما فيه صلاح العالم وقوامه .

﴿ التدير والمصلحة في الفصول الأربعة من السنة ﴾

ثم فكر بعد هذا في ارتفاع الشمس وانحطاطها لاقامة هذه الأزمنة الأربعة (٢) من السنة وما في ذلك من التدير والمصلحة ، ففي الشتاء تعود الحرارة في الشجر والنبات ، فيتولد فيها مواد الثمار ، ويتكشف (٣) الهواء فينشأ منه السحاب والمطر ، وتشتد أبدان الحيوان وتقوى ، وفي الربيع تتحرك وتظهر المواد المتولدة في الشتاء ، فيطلع النبات ، وتنور (٤) الأشجار ويهيج الحيوان للسفاد ، وفي الصيف يحتدم الهواء فتتضج الثمار ، وتتحلل فضول الأبدان ، ويجف وجه الأرض ، فتتهيأ للبناء والأعمال ، وفي الخريف

(١) الجثوم مصدر من قولهم جثم الليل .

(٢) يريد بذلك الامام عليه السلام الفصول الأربعة .

(٣) يتكشف الهواء أي يغلظ ويكثر .

(٤) تنور الاشجار أي تخرج نورها - بفتح فسكون - أي زهرها

أو الابيض منه .

يصفو الهواء ، وترتفع الأمراض ، وتصح الأبدان ، ويمتد الليل فيمكن فيه بعض الأعمال لطوله ، ويطيب الهواء فيه الى مصالح اخرى لو تفحصت لذكرها لطال فيها الكلام .

﴿ معرفة الأزمنة والفصول الأربعة عن طريق حركة الشمس ﴾

فكر الآن في تنقل الشمس في البروج الاثني عشر (١) لاقامة دور السنة وما في ذلك من التدبير . فهو الدور الذي تصح به الأزمنة الأربعة من السنة « الشتاء والربيع والصيف والخريف » تستوفيهما على التمام ، وفي هذا المقدار من دوران الشمس تدرك الغلات والثمار ، وتنتهي الى غاياتهم ثم تعود فيستأنف النشو والنمو . ألا ترى ان السنة مقدار مسير الشمس من الحمل الى الحمل ، فبالسنة واخواتها يكال الزمان من لدن خلق الله تعالى العالم ، إلى كل وقت وعصر من غابر الايام ، وبها يحسب الناس الاعمار والاوقات الموقفة للمديون والاجارات والمعاملات ، وغير ذلك من امورهم ، وبمسير (٢) الشمس تكمل السنة ، ويقوم حساب الزمان على الصحة .

انظر إلى شروقها على العالم كيف دبر أن يكون ؟ فانها لو كانت تبرز في موضع من السماء فتقف لا تعدوه لما وصل شعاعها ومنفعتها إلى

(١) بروج السماء الاثني عشر هي الحمل والثور والجوزاء والسرطان والاسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدي والدلو والحوت .

(٢) في نسخة البحار « ميسر » بتقديم الياء على السين ، وليس للكلمة هنا معنى يوافق المراد .

كثير من الجهات ، لان الجبال والحدود كانت تحجبها عنها ، فجعلت تطلع أول النهار من المشرق فتشرق على ما قابلها من وجه المغرب ، ثم لا تزال تدور وتغشى جهة بعد جهة ، حتى تنتهي إلى المغرب ، فتشرق على ما استتر عنها في أول النهار ، فلا يبقى موضع من المواضع إلا أخذ بقسطه من المنفعة منها ، والارب التي قدرت له . ولو تخلفت مقدار عام او بعض عام كيف كان يكون حالهم ؟ بل كيف كان يكون لهم مع ذلك بقاء ؟ أفلا ترى كيف كان يكون للناس هذه الامور الجليلة التي لم يكن عندهم فيها حيلة ، فصارت تجري على مجاريها لا تقتل (١) ولا تتخلف عن مواقيتها اصلاح العالم وما فيه بقاؤه .

﴿ الاستدلال بالقمر في معرفة الشهور ﴾

استدل بالقمر ففيه دلالة جليلة تستعملها العامة في معرفة الشهور ، ولا يقوم عليه حساب السنة ، لان دوره لا يستوفي الازمنة الاربعة ونشو الثمار وتصرمها ، ولذلك صارت شهور القمر وسنوه تتخلف عن شهور الشمس وسنيها ، وصار الشهر من شهور القمر ينتقل ، فيكون مرة بالشتاء ومرة بالصيف .

﴿ ضوء القمر وما فيه من المنافع ﴾

فسكر في انارته في ظلمة الليل والارب في ذلك فانه مع الحاجة إلى الظلمة لهدوء الحيوان وبرد الهواء على النبات لم يكن صلاح في ان يكون الليل ظلمة داجية لا ضياء فيها ، فلا يمكن فيه شيء من العمل ، لانه ربما

(١) لا تقتل اي لا تنصرف ولا تزول .

احتاج الناس إلى العمل بالليل ، لضيق الوقت عليهم في بعض الاعمال في النهار ، واشدة الحر وافراطه ، فيعمل في ضوء القمر اعمالا شتى ، كحرث الارض ، وضرب اللبن ، وقطع الخشب ، وما أشبه ذلك ، فجعل ضوء القمر معونة للناس على معائشهم اذا احتاجوا الى ذلك ، وانسا للسائرين وجعل طلوعه في بعض الليل دون بعض ، ونقص مع ذلك عن نور الشمس وضياؤها ، لكيلا ينسبط الناس في العمل انبساطهم بالنهار ، ويمتنعوا من الهدوء والقرار ، فيهلكهم ذلك ، وفي تصرف القمر خاصة في مهله (١) ومحاقه (٢) وزيادته ونقصانه وكسوفه ، من التنبيه على قدرة الله تعالى خالقه المصرف له هذه التصريف اصلاح العالم ما يعتبر به المعتبرون .

﴿ النجوم واختلاف مسيرها والسبب في ان بعضها راتبة والاخرى متنقلة ﴾
فكر يا مفضل في النجوم واختلاف مسيرها ، فبعضها لا تفارق
مراكزها من الفلك (٣) ولا تسير إلا مجتمعة ، وبعضها مطلقة تنتقل في
البروج وتفترق في مسيرها ، فكل واحد منها يسير سيرين مختلفين ،
أحدهما عام مع الفلك نحو المغرب ، والآخر خاص لنفسه نحو المشرق كالنملة
التي تدور على الرمح ، فالرحى تدور ذات اليمين ، والنملة تدور ذات الشمال
والنملة في ذلك تتحرك حركتين مختلفتين : احدهما بنفسها فتوجه امامها ،

(١) مهله : أي ظهوره .

(٢) المحاق : - بكسر الاول او ضممه او فتحه - هو آخر الشهر

القمرى وقيل ثلاث ليال من آخره .

(٣) لعل المراد انه ليس لها حركة بينة ظاهرة كما في النجوم السيارة

والاخرى مستكرهة مع الرضى تجذبها الى خلفها . . فاسأل الزاعمين ان
النجوم صارت على ما هي عليه بالاهمال ، من غير عمد ولا صانع لها ما منعها
أن تكون كلها راتبة (١) او تكون كلها منتقلة ، فان الاهمال معنى واحد (٢)
فكيف صار يأتي بحركتين مختلفتين على وزن وتقدير ؟ ففي هذا بيان أن
مسير الفريقين على ما يسيران عليه بعمد وتدير وحكمة وتقدير ، وليس
بأهال كما يزعم المعطلة ، فان قال قائل : ولم صار بعض النجوم راتبا وبعضها
منتقلا ؟ قلنا : انها لو كانت كلها راتبة لبطلت الدلالات التي يستدل بها
من تنقل المنتقلة ، ومسيرها في كل برج من البروج ، كما يستدل بها على
أشياء مما يحدث في العالم ، بتقل الشمس والنجوم في منازلها ، ولو كانت
كلها منتقلة ، لم يكن لمسيرها منازل تعرف ، ولا رسم يوقف عليه ، لأنه
انما يوقف عليه بمسير المنتقلة منها بتنقلها في البروج الراتبة (٣) كما يستدل
(١) راتبة أى ثابتة غير متحركة .

(٢) يحتمل أن يكون المراد ان الطبيعة أو الدهر - الذين يجعلونها
أصحاب الاهمال مؤثرين - كل منهما أمر واحد غير ذي شعور وإرادة ،
ولا يمكن صدور الامرين المختلفين عن مثل ذلك . . أو المراد أن العقل
يحكم بان مثل هذين الامرين المتسقين الجاريين على قانون الحكمة لا يكون
إلا من حكيم راعى فيهما دقائق الحكم . . أو المراد ان الاهمال أي عدم
الحاجة الى العلة ، وترجح الامر الممكن من غير مرجح كما تزعمون أمر
واحد حاصل فيهما ، فلم صارت احدهما راتبة والاخرى منتقلة ؟ ولم لم
يعكس الامر . . واهل المعنى الاول الذي ذكرناه أفضل وأقرب .
« من تعليقات البحار »

(٣) ترجح ان الامام عليه السلام راعى في انتقال البروج محاذاة-

على سير السائر على الأرض بالمنازل التي يجتاز عليها أو لو كان تنقلها بحال واحدة لاختلط نظامها ، وبطلت المآرب فيها ، ولساغ القائل أن يقول ان كينونتها على حال واحدة توجب عليها الاهمال من الجهة التي وصفنا ، ففي اختلاف سيرها وتصرفها وما في ذلك من المآرب والمصلحة ، أئين دليل على العمد والتدبير فيها .

﴿ فوائد بعض النجوم ﴾

فكر في هذه النجوم التي تظهر في بعض السنة وتختجب في بعضها كمثل الثريا (١) والجوزاء (٢) والشعرين (٣) وسهيل (٤) ، فانها لو كانت باسرها تظهر في وقت واحد لم يكن لواحد فيها على حياه دلالات يعرفها الناس ، ويهتدون بها لبعض امورهم ، كمعرفتهم الآن بما يكون من طلوع الثور (٥) والجوزاء اذا طلعت ، واحتجابها اذا احتجبت ، فصار ظهور كل واحد واحتجابه في وقت غير الوقت الآخر ، لينتفع الناس بما يدل - نفس الاشكال . . وان امكن أن يكون المراد بيان حكمة بقاء الحركة ليصلح كون تلك الاشكال علامات للبروج ، ولو بقربها منه . . لكن هذا المعنى بعيد .
« من تعليلات البحار »

- (١) الثريا : مجموع كواكب في عنق الثور .
- (٢) الجوزاء : بروج في السماء ، سميت بذلك لاعتراضها في جوز السماء أي وسطه .
- (٣) الشعرين : ثنية الشعرى - بالكسر - وهو الكوكب الذي يطلع في الجوزاء وطلوعه في شدة الحر .
- (٤) سهيل - بالتصغير - نجم بهي طلوعه على بلاد العرب في اواخر القيظ .
- (٥) الثور : برج في السماء من البروج الاثني عشر .

عليه كل واحد منها على حدته ، وما جعلت الثريا واشباهها تظهر حيناً وتختبئ حيناً إلا لضرب من المصلحة ، وكذلك جعلت بنات نعش (١) ظاهرة لا تغيب لضرب آخر من المصلحة ، فانها بمنزلة الاعلام التي يهتدى بها الناس في البر والبحر للطرق المجهولة ، وكذلك انها لا تغيب ولا تتوارى فهم ينظرون اليها متى أرادوا أن يهتدوا بها الى حيث شاؤا ، وصار الأمران جميعاً على اختلافهما موجهين نحو الارب والمصلحة ، وفيهما مآرب اخرى علامات ودلالات على أوقات كثيرة من الاعمال ، كالزراعة والفراس والسفر في البر والبحر ، وأشياء مما يحدث في الأزمنة من الأمطار والرياح والحر والبرد ، وبها يهتدى السائرون في ظلمة الليل ، لقطع القفار الموحشة واللجج (٢) الهائلة ، مع ما في تردها في كبد السماء مقبلة ومدبرة ومشرفة ومغربية من العبر ، فانها تسير أسرع السير وأحثة (٣) . أرأيت لو كانت الشمس والقمر والنجوم بالقرب منا ، حتى يتبين لنا سرعة سيرها بكنه ما هي عليه ، ألم تكن تستخطف الأبصار بوجهها وشعاعها كالذي يحدث أحياناً من البروق اذا توالى واضطربت في الجو ؟ وكذلك ايضاً لو ان اناساً كانوا في قبة مكللة بمصاييح تدور حولهم دوراناً حيثما لحارت أبصارهم حتى يخرجوا لوجوههم .

(١) بنات نعش الكبرى : سبعة كواكب تشاهدها جهة القطب الشمالي ، ويقربها سبعة أخرى تسمى بنات نعش الصغرى ، والنجمة التي رسمت كبيرة هي النجمة القطبية التي يستدل بها على نقطة القطب الشمالي .

(٢) اللجج جمع لجة : معظم الماء .

(٣) أسرع السير وأحثة كلاهما بمعنى واحد .

فانظر كيف قدر أن يكون مسيرها في البعد البعيد ، لكيلا تضر في الأبصار ، وتنكأ فيها ، وبأسرع السرعة . لكيلا تتخلف عن مقدار الحاجة في مسيرها ، وجعل فيها جزءاً يسيراً من الضوء ، ليسد مسد الاضواء إذا لم يكن قر ، ويمكن فيه الحركة اذا حدثت ضرورة ، كما قد يحدث الحادث على المرء ، فيحتاج إلى التجافي (١) في جوف الليل ، فان لم يكن شيء من الضوء يهتدى به لم يستطع ان يبرح مكانه . فتأمل اللطف والحكمة في هذا التقدير ، حين جعل للظلمة دولة ومدة لحاجة اليها ، وجعل خلالها شيء من الضوء له آرب التي وصفنا .

﴿ الشمس والقمر والنجوم والبروج تدل على الخالق ﴾

فكر في هذا الفلك بشمسه وقمره ونجومه وبروجه تدور على العالم هذا الدوران الدائم ، بهذا التقدير والوزن لما في اختلاف الليل والنهار وهذه الازمان الاربعة المتوالية ، من التنبيه على الارض وما عليها من اصناف الحيوان والنبات من ضروب المصلحة ، كالذي بينت وشخصت لك آنفاً وهل يخفى على ذي لب ان هذا تقدير مقدر وصواب وحكمة من مقدر حكيم ، فان قال قائل : ان هذا شيء اتفق أن يكون هكذا ؟ فما منعه أن يقول مثل هذا في دولاب (٢) يراه يدور ويسقى حديقة فيها شجر ونبات فيرى كل شيء من آلاته مقدرأ بعضه يلقي بعضاً على ما فيه صلاح تلك

(١) التجافي من تجافي أي لم يلزم مكانه .

(٢) الدولاب - بالفتح - كل آلة تدور على محور والجمع دواليب ، والكلمة من الدخيل .

الحديقة وما فيها . وبم كان يثبت هذا القول لو قاله . وما ترى الناس كانوا قائلين له لو سمعوه منه ؟ أفينكر ان يقول في دولاب خشب مصنوع بحيلة قصيرة لمصلحة قطعة من الارض ، انه كان بلا صانع ومقدر ، ويقدر أن يقول في هذا الدولاب الاعظم ، الخلق بحكمة تقصر عنها أذهان البشر ، لصالح جميع الارض وما عليها انه شيء اتفق أن يكون بلا صنعة ولا تقدير لو اعتل هذا الغلاك ، كما اعتل الآلات التي تتخذ للصناعات وغيرها ، أي شيء كان عند الناس من الحيلة في اصلاحه .

﴿ مقادير الليل والنهار ﴾

فكر يا مفضل في مقادير النهار والليل ، كيف وقعت على ما فيه - صلاح هذا الخلق ، فصار منتهى كل واحد منها - اذا امتد - الى خمس عشرة ساعة لا يجاوز ذلك (١) أفرايت لو كان النهار يكون مقداره مائة ساعة أو مائتي ساعة ؟ ألم يكن في ذلك بوار كل ما في الارض من حيوان ونبات ؟ أما الحيوان فكان لا يهدأ ولا يقر طول هذه المدة ، ولا البهائم كانت تمسك عن الرعى لو دام لها ضوء النهار ، ولا الانسان كان يفتر عن العمل والحركة ، وكان ذلك ينهكها اجمع ، ويؤديها الى التلف ، وأما النبات فكان يطول عليه حر النهار ووهج الشمس حتى يجف ويحترق

(١) يتساوى الليل والنهار في جميع أنحاء العالم مرتين في الخريف يوم ٢٣ أيلول ومرة ثمانية في الربيع يوم ٢٢ مارت . ويطول الليل في الشتاء بتاريخ ٢١ كانون الاول حتى يبلغ طوله في العراق أكثر من أربعة عشر ساعة ، ثم يطول النهار في الصيف بتاريخ ٢١ حزيران ويزيد طوله في العراق على أربعة عشر ساعة .

كذلك الليل لو امتد مقدار هذه المدة كان يعوق أصناف الحيوان عن الحركة والتصرف في طلب المعاش ، حتى تموت جوعاً ، وتخمد الحرارة الطبيعية عن النبات ، حتى يعفن ويفسد ، كالذي نراه يحدث على النبات اذا كان في موضع لا تطلع عليه الشمس .

﴿ الحر والبرد وفوائدهما ﴾

اعتبر بهذا الحر والبرد كيف يتعاوران (١) العالم ، ويتصرفان هذا التصرف في الزيادة والنقصان والاعتدال ، لاقامة هذه الأزمنة الأربعة من السنة وما فيهما من المصالح ، ثم هما بعد دباغ الأبدان التي عليهما بقاؤها وفيهما صلاحها ، فانه لولا الحر والبرد وتداولهما الأبدان لفستت واخوت (٢) وانتكشت (٣) .

فسكر في دخول احدهما (٤) على الآخر بهذا التدريج والترسل ، فانك ترى أحدهما ينقص شيئاً بعد شيء ، والآخر يزيد مثل ذلك ، حتى ينتهي كل واحد منهما منتهاه في الزيادة والنقصان : ولو كان دخول احدهما على الآخر مفاجأة ، لأضر ذلك بالأبدان واسقمها ، كما ان احداًكم لو خرج من حمام حار إلى موضع البرودة ، لضره ذلك واسقم بدنه فلم يجعل الله عزوجل هذا الترسل في الحر والبرد ، إلا للسلامة من ضرر المفاجأة ولم

(١) يتعاوران : يتداولان .

(٢) أخوت : جاءت .

(٣) انتكشت : انتقضت وانتبذت .

(٤) أحدهما أى الحر والبرد .

جري الامر على ما فيه السلامة من ضرر المفاجأة لولا التدبير في ذلك ؟
 فان زعم زاعم : ان هذا الترسل في دخول الحر والبرد انما يكون لابطاء
 مسير الشمس في ارتفاعها وانحطاطها ، سئل عن العلة في ابطاء مسير الشمس
 في ارتفاعها وانحطاطها ، فان اعتل في الابطاء ببعد ما بين المشرقين (١)
 سئل عن العلة في ذلك ، فلا تزال هذه المسألة ترقى معه الى حيث رقى من
 هذا القول ، حتى استقر على العمد والتدبير . . لولا الحر لما كانت الثمار
 الجاسية (٢) المرة تنضج فتلين وتعذب ، حتى يتفكه بها رطبة ويابسة . .
 ولولا البرد لما كان الزرع يفرخ (٣) هكذا ، ويربع الربيع (٤) الكثير
 الذي يتسع للقوت ، وما يرد في الارض للبذر . . أفلا ترى ما في الحر والبرد
 من عظيم الغناء والمنفعة ، وكلاهما مع غنائه والمنفعة فيه يؤلم الابدان
 ويمضها (٥) وفي ذلك عبرة لمن فكّر ، ودلالة على انه من تدبير الحكيم ،
 في مصلحة العالم وما فيه .

﴿ الريح وما فيها ﴾

- وانبهك يا مفضل على الريح وما فيها ، ألسنت ترى ركودها اذا
 (١) المراد بالمشرقين هنا هما المشرق والمغرب من باب تغليب أحدهما
 على الآخر .
 (٢) الجاسية : أي الصلبة .
 (٣) يفرخ الزرع : أي تنبت افراخه وهي ما يخرج في أصوله
 من صغاره .
 (٤) يربع الربيع أي تنمو الغلة وتزداد .
 (٥) يمضها : يوجعها ويؤلمها .

ركدت كيف يحدث الكرب ، الذي يكاد أن يأتي على النفوس ، ويمرض
الاصحاء ، وينهك المرضى ، ويفسد الثمار ، ويعفن البقول ، ويعقب الوباء
في الابدان ، والآفة في الغلات . - ففي هذا بيان : ان هبوب الريح من
تدبير الحكيم في صلاح الخلق .

﴿ الهواء والاصوات ﴾

وانبتك عن الهواء بخلة اخرى ، فان الصوت أثر يؤثره اصطكاك
الاجسام في الهواء ، والهواء يؤديه الى المسامع (١) والناس يتكلمون في
حوادثهم ومعاملاتهم طول نهارهم وبعض ليالهم ، فلو كان أثر هذا الكلام
يبقى في الهواء ، كما يبقى الكتاب في القرطاس ، لامتلا العالم منه ، فكان
يكرههم ويفدحهم ، وكانوا يحتاجون في تجديده والاستبدال به ، إلى
أكثر مما يحتاج اليه في تجديد القرطاس ، لان ما يلغى من الكلام اكثر
مما يكتب فجعل الخلاق الحكيم حل قدسه هذا الهواء قرطاساً خفياً يحمل
الكلام ريثما يبلغ العالم حاجتهم ، ثم يمحي فيعود جديداً نقياً ، ويحمل ما
حمل ابداً بلا انقطاع ، وحسبك بهذا النسيم المسمى هواء عبرة ، وما فيه
من المصالح ، فانه حياة هذه الابدان ، والممسك لها من داخل ، بما يستنشق

(١) تعريف الامام عليه السلام للصوت لا يتعارض مع التعريف
الذي اصطلاحه العلم الحديث له ، فالصوت في النظر العلمي هو حركة
اهتزازية تحدث في الهواء من جسم اهتز فيه ، والصوت إذ يحدث الرجات
في الهواء تنتقل هذه الرجات الى طبلة الاذن ليحملها عصب السمع الى المخ
ومما يدل على ان الصوت هو رجات تحدث في الهواء انه لو احدث صوت
داخل ناقوس مفرغ الهواء لم يسمع له حس أبداً .

منه من خارج بما يباشر من روحه ، وفيه تطرد هذه الاصوات فيـؤدي
 البعد البعيد ، وهو الحامل لهذه الارواح ينقلها من موضع الى موضع . . .
 ألا ترى كيف تأتلك الرائحة من حيث تهب الريح ، فكذلك الصوت ،
 وهو القابل لهذا الحر والبرد ، اللذين يتعاقبان على العالم لصلاحه ، ومنـه
 هذه الريح الهابة فالريح تروح عن الاجسام وتزجى السحاب من موضع إلى
 موضع ، ليعم نفعه ، حتى يستكشف فيمطر ، وتفضيه حتى يستخف فيتفشى
 وتلقح الشجر ، وتسير السفن ، وترخي الاطعمة ، وتبرد الماء ، وتشب
 النار ، وتجفف الاشياء النتية ، وبالجملة انها تحيي كل ما في الارض . . .
 فلو لا الريح لذوى النبات ، ولمات الحيوان ، وحات الاشياء وفسدت .

(هيئة الأرض)

فسكر يامفضل فيما خلق الله عزوجل عليه هذه الجواهر الأربعة (١)
 ليتسع ما يحتاج اليه منها . . فمن ذلك سعة هذه الأرض وامتدادها ، فلو لا
 ذلك كيف كانت تتسع لمساكن الناس ومزارعهم ومراعيتهم ومنابت
 اخشابهم واحطابهم والعقاير العظيمة والمعادن الجسيم غناؤها . ولعل من
 (١) المراد بالجواهر الأربعة هي التراب والماء والهواء والنار ،
 والمعروف ان المفكر اليوناني إمبردوقليس (٤٩٥ - ٤٣٥) ق م قد رد
 الكون الى تلك العناصر أو الجواهر الأربعة التي هي في رأيه لا تفتأ في اتصال
 وانفصال يكونان سبباً في نشأة الأشياء واختلاف صفاتها تبعاً للاختلاف
 في نسبة المزج بين العناصر . . ولا يخفى ان ما ذهب اليه إمبردوقليس هذا
 في التفريق بين صفات العناصر وصفات الأشياء التي تركبت منها تباين ظاهر
 وتناقض واضح .

ينكر هذه الفلوات (١) الخاوية والقفار الموحشة . فيقول : ما المنفعة فيها ؟
فهي مأوى هذه الوحوش ومحالها ومراعيها ، ثم فيها بعد تنفس ومضطرب
للناس اذا احتاجوا الى الاستبدال باوطانهم ، فكم يبداء وكم فدود (٢)
حالت قصوراً وجناناً ، بانتقال الناس اليها وحلولهم فيها ، ولو لا سعة
الأرض وفسحتها لكان الناس كمن هو في حصار ضيق لا يجد مندوحة عن
وطنه اذا أحزنه أمر يضطره الى الانتقال عنه .

ثم فكر في خلق هذه الارض على ما هي عليه حين خلقت راتبة
راكنة ، فتكون موطناً مستقراً للأشياء ، فيتمكن الناس من السعي عليها
في مآربهم ، والجلوس عليها لراحتهم ، والنوم لهدوئهم ، والاتقان لأعمالهم
فانها لو كانت رجراجة منكفئة ، لم يكونوا يستطيعون ان يتقنوا البناء
والنجارة والصناعة وما أشبه ذلك ، بل كانوا لا يتهنون بالعيش والارض
ترج من تحتهم ، واعتبر ذلك بما يصيب الناس حين الزلازل (٣) - على قلة
مكشها - حتى يصيروا الى ترك منازلهم ، والهرب عنها . . فان قال قائل :

(١) الفلوات جمع فلات وهي الصحراء الواسعة .

(٢) الفدود : القلاة والجمع فدافد .

(٣) الزلازل جمع زلزلة وهي من آثار التفاعلات الارضية الحاصلة
في بطن الأرض ، وسببها هو سبب تكون البراكين ، وذلك ان مياه
البحور تتسرب من خلال طبقات الارض ، حتى تصل الى عمق تكون فيه
درجة الحرارة شدة ، فإذا تبخر الماء بفعل الحرارة طلب له منفذاً ، ولا
يزال يتراكم على بعضه الى أن يهدم ما يصادفه أمامه من الحواجز ، فترج
له القشرة الأرضية بحسب قوة البخار واندفاعه وهذا ما يسمى بالزلزلة .

فلم صارت هذه الأرض تنزل ؟ قيل له أن الزلزلة وما أشبهها موعظة وترهيب يرهب بها الناس ليرعوا ، وينزعوا عن المعاصي ، وكذلك ما ينزل بهم من البلاء في ابدانهم وأموالهم ، يجري في التدبير على ما فيه صلاحهم واستقامتهم ، ويدخر لهم ان يصلحوا من الثواب والعوض في الآخرة مالا يعد له شيء من أمور الدنيا ، وربما عجل ذلك في الدنيا اذا كان ذلك في الدنيا صلاحاً للعامة والخاصة . . ثم ان الارض في طباعها الذي طبعها الله عليه باردة يابسة ، وكذلك الحجارة ، وأما الفرق بينها وبين الحجارة فضل ييس في الحجارة ، أفرأيت لو ان اليبس افترط على الارض قليلا ، حتى تكون حجواً صلباً ، أكانت تنبت هذا النبات الذي به حياة الحيوان ، وكان يمكن بها حرث أو بناء ؟ ؟ أفلا ترى كيف نقصت من ييس الحجارة وجعلت على ما هي عليه من اللين والرخاوة لتتهيأ للاعتماد .

﴿ فوائد الماء والسبب في كثرتة ﴾

ومن تدبير الحكيم جل وعلا في خلقة الارض ان مهب الشمال أرفع من مهب الجنوب (١) فلم جعل الله عز وجل كذلك إلا لتتحد المياد

(١) اي بعد ما خرجت الارض من الكروية الحقيقية ، صار ما يلي الشمال منها في أكثر المعمورة ارفع مما يلي الجنوب ، ولذا ترى أكثر الأنهار كندجلة والفرات وغيرها تجري من الشمال الى الجنوب ، لأن الماء الساكن في جوف الارض تابع للارض في ارتفاعه وانخفاضه ، ولذا أيضاً صارت العيون المنفجرة تجري هكذا من الشمال الى الجنوب . . ومن أجل ذلك حكموا بفوقية الشمال على الجنوب . ويظهر لك مما بينه الامام عليه السلام انه لا ينافي كروية الارض . « من تعليقات البحار »

على وجه الأرض فتسقيها وترويه ، ثم تفيض آخر ذلك الى البحر ، فكمما يرفع أحد جانبي السطح ، ويخفض الآخر لينحدر الماء عنه ولا يقوم عليه كذلك جعل مهب الشمال أرفع من مهب الجنوب لهذه العلة بعينها ، ولولا ذلك لبقى الماء متخيراً على وجه الأرض ، فكان يمنع الناس من اعمالها ، ويقطع الطرق والمسالك ، ثم الماء لولا كثرته ، وتدفقه في العيون والالودية والانهار ، لضايق عما يحتاج اليه الناس ، لشربهم وشرب أنعامهم ومواشيهم ، وسقي زروعهم وأشجارهم واصناف غلاتهم ، وشرب ما يردده من الوحوش والطيور والنبات ، وتنقلب فيه الحيتان ودواب الماء ، وفيه منافع اخر أنت بها عارف ، وعن عظيم موقعها غافل فانه (١) سوى الامر الجليل المعروف من عظيم غناؤه في احياء جميع ما على الارض من الحيوان والنبات يمزج الاشربة فتلذذ وتطيب لشاربها ، وبه تنظف الابدان والامتعة من الدرن (٢) الذي يغشاها ، وبه يبل (٣) التراب فيصلح للاعمال وبه يكف عادية النار اذا اضطربت ، وأشرف الناس على المكروه ، وبه يستحم المتعب الكلال (٤) فيجد الراحة من أوصابه ، إلى أشباه هذا من المآرب التي تعرف عظم موقعها في وقت الحاجة اليها ، فان شككت في منفعة

(١) الضمير راجع إلى الماء وهو اسم ان ويمزج خبرها . . أي للماء سوى النفع الجليل المعروف وهو كونه سببا لحياة كل شيء منافع أخرى منها انه يمزج مع الاشربة .

(٢) الدرن - بفتح تين - هو الوسخ جمعه أدران .

(٣) بله الماء : نداه .

(٤) الكال اسم فاعل من كلّ : تعب واعيا .

هذا الماء الكثير المتراكم في البحار ، وقلت : ما الارب فيه ؟ فاعلم انه مكتنف ومضطرب ما لا يحصى من أصناف السمك ودواب البحر ومعدن اللاؤلؤ والياقوت والعنبر (٥) وأصناف شتى تستخرج من البحر ، وفي سواحل منابت العود اليلنجوج (٦) وضروب من الطيب والعقاقير ، ثم هو بعد مركب للناس ، ومحمل لهذه التجارات التي تجلب من البلدان البعيدة ، كمثل ما يجلب من الصين الى العراق ، ومن العراق الى الصين (٧) فان هذه التجارات لو لم يكن لها محمل إلا على الظهر لبارت وبقيت في بلدانها وايدي أهلها ، لان أجر حملها يجاوز أثمانها ، فلا يتعرض أحد لحملها وكان يجتمع في ذلك أمران : احدهما فقد أشياء كثيرة تعظم الحاجة اليها والآخر انقطاع معاش من يحملها ويتعيش بفضلها .

﴿ فوائد الهواء والسبب في كثرتة ﴾

وهكذا الهواء لو لا كثرتة وسعته لاختنق هذا الانام من الدخان والبخار الذي يتحير فيه ، ويعجز عما يحول الى السحاب والضباب أولاً ، فقد تقدم من صفته ما فيه كفاية .

﴿ منافع النار وجعلها كالخزونة في الاجسام ﴾

والنار أيضاً كذلك ، فانها لو كانت مبعوثة كالنسيم والماء كانت

(١) العنبر هو الطيب والزعفران ، أوحوت قد يبلغ طوله نحو أربعين قدماً ضخماً الرأس وله أسنان بخلاف البال والجمع عنابر .
(٢) اليلنجوج : العود الطيب الرائحة .

(٣) في نسخة البحار ومن العراق الى العراق . . وما ذكرناه أظهر

تُحرق العالم وما فيه ، ولما لم يكن بد من ظهورها في الاحايين ، لغنائها في كثير من المصالح ، جعلت كالتحزونة في الاجسام ، فلتتمس عند الحاجة اليها ، وتمسك بالمادة والخطب ما احتيج الى بقائها لئلا تحبوا فلا هي تمسك بالمادة والخطب ، فتعظم المؤونة في ذلك ، ولا هي تظهر مبشوة ، فتحرق كل ما هي فيه ، بل هي على تهيئة وتقدير ، إجتماع فيها الاستمتاع بمنافعها والسلامة من ضررها .

ثم فيها خلة اخرى وهي انها مما خص بها الانسان دون جميع الحيوان لما له فيها من المصلحة ، فانه لو فقد النار لعظم ما يدخل عليه من الضرر في معاشه ، فاما البهائم فلا تستعمل النار ، ولا تستمتع بها ، ولما قدر الله عز وجل أن يكون هذا هكذا ، خلق للانسان كفاً وأصابع مهيتة لفتح النار واستعمالها ، ولم يعط البهائم مثل ذلك ، لئلا أعين بالصر على الحفاء والخلل في المعاش لئلا ينال الانسان عند فقدها وانبتك من منافع النار على خلقة صغيرة عظيم موقعها ، وهي هذا المصباح الذي يتخذ الناس ، فيقضون به حوائجهم ما شاؤا في ليلهم ولولا هذه الخلة لكان الناس تصرف أعمارهم بمنزلة من في القبور ، فمن كان يستطيع أن يكتب أو يحفظ ، أو ينسج في ظلمة الليل ، وكيف كان حال من عرض له وجع في وقت من أوقات الليل ، فاحتاج الى أن يعالج ضامداً أو سفوفاً (١) أو شيئاً يستشفى به . . فاما منافعها في نضج الأطعمة ودقها

(١) السفوف - بالفتح - : ما تنسفه من دواء ونحوه . وسف الدواء ونحوه : أخذه غير ملتوت .

الأبدان وتجفيف أشياء وتحليل أشياء وأشباه ذلك : فأكثر من أن نحصى وأظهر من أن نحفي .

﴿ الصحو والمطر وتعاقبهما على العالم وفوائده ذلك ﴾

فكر يا مفضل في الصحو والمطر كيف يتعاقبان على هذا العالم لما فيه صلاحه ، ولو دام واحد منهما عليه كان في ذلك فساد . . ألا ترى ان الأمطار اذا توالى عفت البقول والخضر ، واسترخت أبدان الحيوان وحصر الهواء فحدث ضرراً من الأمراض . وفست الطرق والمسالك وان الصحو اذا دام جفت الأرض ، واحترق النبات ، وغيض ماء العيون والأودية ، فاضر ذلك بالناس ، وغلب اليبس على الهواء فحدث ضرراً أخرى من الأمراض . . فاذا تعاقبا على العالم هذا التعاقب اعتدل الهواء ودفع كل واحد منهما عادية الآخر ، فصالحت الأشياء واستقامت . . فان قال قائل : ولم لا يكون في شيء من ذلك مضرة البتة ؟ قيل له ليمض ذلك الانسان ويؤلمه بعض الألم ، فيرعوي عن المعاصي ؛ فكما ان الانسان اذا سقم بدنه احتاج إلى الأدوية المرة البشعة ليقوم طباعه ، ويصلح ما فسد منه ، كذلك اذا طغى واشتد احتاج إلى ما يعضه ويؤلمه ، ليرعوى ويقصر عن مساويه ، ويثبت على ما فيه حظه ورشده . . ولو ان ملكاً من الملوك قسم في أهل مملكته قناطر (١) من ذهب وفضة ، ألم يكن سيعظم عندهم ويذهب له به الصوت ، فاین هذا من مطرة رواء يعم به البلاد ، ويزيد في

(١) القناطر جمع قنطار وهو المال الكثير أو وزن يختلف مقدار موزونه مع الايام .

الغلات أكثر من قناطير الذهب والفضة في أقاليم الأرض كلها . . أ فلا ترى المطرة الواحدة ما اكبر قدرها ، وأعظم النعمة على الناس فيها وهم عنها ساهون ، وربما عاقت عن أحدهم حاجة لا قدر لها ، فيتدمر ويسخط .
ايثاراً للخسيس قدره على العظيم نفعه ، جميلاً لمحموداً لعاقبته وقلة معرفته (١)
لعظيم الغناء والمنفعة فيها .

(مصالـح نزول المطر على الارض وأثر التدبير فيه)

تأمل نزوله على الأرض والتدبير في ذلك ، فانه جعل ينحدر عليها من علو ليفشى ما غلظ وارتفع منها فيرويه ، ولو كان انما يأتينا من بعض نواحيها لما علا المواضع المشرفة منها ، ويقل ما يزرع في الأرض . . ألا ترى ان الذي يزرع سيجاً (٢) أقل من ذلك ، فالأمطار هي التي تطبق الأرض ، وربما تزرع هذه البراري الواسعة وسفوح الجبال وذراها فتغل الغلة الكثيرة . وبها يسقط عن الناس في كثير من البلدان مؤنة سباق الماء من موضع إلى موضع ، وما يجري في ذلك بينهم من التشاجر والتظالم حتى يستأثر بالماء ذو العز والقوة ، ويحرمه الضعفاء ، ثم انه حين قدر أن ينحدر على الأرض إنحداراً جعل ذلك قطراً شبيهاً بالرش ، ليغور في قعر الأرض فيرويه ، ولو كان يسكب انسكاباً كان ينزل على وجه الأرض فلا يغور فيها ، ثم كان يحطم الزروع القائمة اذا اندفق عليها ، فصار ينزل (١) في الاصل المطبوع محمود العاقبة وقلة معرفة ، وما ذكرناه

هو الأصح . .

(٢) زراعة السيج هي الزراعة التي تحصل عن طريق الانهر والمياه الجارية

نزولا رقيقاً ، فينبث الحب المزروع ، ويحيى الارض والزرع القائم ،
 وفي نزوله أيضاً مصالح اخرى ، فانه يلين الابدان ، ويجلو كدر
 الهواء ، فيرتفع الوباء الحادث من ذلك ، ويفسل ما يسقط على الشجر
 والزرع من الداء المسمى باليرقان (١) إلى أشباه هذا من المنافع ، فان قال
 قائل : أوليس قد يكون منه في بعض السنين الضرر العظيم الكثير ،
 لشدة ما يقع منه ، أو برد (٢) يكون فيه تحطم الغلات ، وبخورة يحدتها
 في الهواء ، فيولد كثيراً من الامراض في الابدان والآفات في الغلات ؟
 قيل : بلى قد يكون ذلك الفرط ، لما فيه من صلاح الانسان ، وكفه عن
 ركوب العاصي والتماذى فيها ، فيكون المنفعة فيما يصلح له من دينه ، أرجح
 مما عسى ان يرزأ في ماله ! .

﴿ منافع الجبال ﴾

انظر يا مفضل الى هذه الجبال المركومة من الطين والحجارة ، التي
 يحسبها الغافلون : فضلاً لا حاجة اليها ، والمنافع فيها كثيرة ، فمن ذلك أن
 تسقط عليها الثلوج ، فتبقى في قلاها (٣) لمن يحتاج اليه ، ويدوب ما ذاب
 منه ، فتجري منه العيون الغزيرة التي تجتمع منها الانهار العظام ، وينبت
 (١) اليرقان - بفتحيتين او فتح فسكون - آفة للزرع أو دود
 يسطو على الزرع .

(٢) البرد - بفتحيتين - : ماء الغمام يتجمد في الهواء البارد ويسقط
 على الارض حبوباً .

(٣) القلال - بالكسر - جمع قلة - بضم فتشديد - : أعلى الرأس
 والجبل وكل شيء .

فيها ضروب من النبات والعقاقير التي لا ينبت مثلها في السهل ، ويكون فيها كهوف ومعامل للوحوش من السباع العادية (١) ويتخذ منها الحصون والقلاع المنيعة للتحرز من الأعداء وينحت منها الحجارة للبناء والأرحاء (٢) ويوجد فيها معادن لضرب من الجواهر ، وفيها خلال آخر لا يعرفها إلا المقدر لها في سابق علمه .

﴿ أنواع المعادن واستفادة الانسان منها ﴾

فكر يا مفضل في هذه المعادن وما يخرج منها من الجواهر المختلفة مثل الجص والكلس (٣) والجبس (٤) والزنبرج (٥) والمرتك (٦)

(١) العادية : المعتدية .

(٢) الارحاء جمع رحي وهي الطاحون .

(٣) الكلس - بالكسر - تقدم ذكره .

(٤) الجبس كذا في النسخ ولم نجده فيما عندنا من كتب اللغة ، والظاهر انه الجبس وهو الجص الذي يبنى به وهو مركب من كبريتات الكالسيوم ويوجد في الأراضي الثلا .

(٥) في الاصل الزرانيخ والالف زائدة ولم ترد في كلام العرب ، والزرنيخ عنصر معروف يوجد منفرداً وعلى حالة كبريتور الزرنيخ وهو جسم صلب لونه سنجابي لماع متبلور يتطاير بالحرارة من غير أن يصهر ولا يذوب في الماء ، واذا خلط الزنيخ مع الكلس خلق الشعر .

(٦) المرتك وتضاف اليه غالباً كلمة الذهبي وهو اكسيد الرصاص عبارة عن بلورات صغيرة مسحوقة يدخل في تركيب مرهم للبواسير .

والتوتيا (١) والزئبق (٢) والنحاس والرصاص والفضة والذهب والزربرد والياقوت والزمرد (٣) وضروب الحجارة ، وكذلك ما يخرج منها من القار والموميا والكبريت والنفط (٤) وغير ذلك مما يستعمله الناس في مآربهم فهل يخفى على ذي عقل ان هذه كلها ذخائر ذخرت للانسان في هذه الأرض ، ليستخرجها فيستعملها عند الحاجة اليها ، ثم قصرت حيلة الناس عما حاولوا من صنعتها على حرصهم واجتهادهم في ذلك فانهم لو ظفروا بما حاولوا من هذا العلم كان لا محالة سيظهر ، ويستفيض في العالم ، حتى تكثر الفضة والذهب ، ويسقطا عند الناس فلا تكون لهما قيمة ويبطل الانتفاع بهما في الشراء والبيع والمعاملات ، ولا كان يحجب السلطان الأموال ولا يدخرها أحد للأعقاب ، وقد أعطى الناس - مع هذا - صنعة الشبّه (٥) من النحاس ، والزجاج من الرل - والفضة من الرصاص ، والذهب من الفضة ، وأشباه ذلك مما لا مضرّة فيه .

فانظر كيف اعطوا ارادتهم في ما لا ضرر فيه ، ومنعوا ذلك فيما

(١) التوتيا هي او كسيد الزنك غير النقي مخلوطا مع الزرنيخ لا يستعمل في الطب .

(٢) في الاصل الزبيق وهو استعمال عامي . والزئبق سيال معدني لماع يتجمد على درجة ٤٠ تحت الصفر ويغلي على درجة ٣٦٠ فوق الصفر ، ويستعمل لاستخراج الذهب والفضة بالتملغم وفي البارومتر والترومومتر وفي عمل المرايا وفي الطب دهانا على الجلد في معالجة الزهري (٣ - ٤) هذه العناصر والاحجار معروفة كلها فلا حاجة الى شرحها (٥) الشبه - بكسر ففتح - هو النحاس الاصفر .

كان ضاراً لهم لو نالوه ، ومن أوغل في المعادن انتهى إلى واد عظيم يجري منصلاً بماء غريز ، لا يدرك غوره ، ولا خيلة في عبوره ، ومن ورائه أمثال الجبال من الفضة .

تفكر الآن في هذا ، من تدبير الخالق الحكيم ، فانه أراد جل ثناؤه ان يرى العباد قدرته . وسعة خزائنه ، ليعلموا انه لو شاء ان يمنحهم كالجبال من الفضة لفعل ، لكن لا صلاح لهم في ذلك ، لأنه لو كان فيكون فيها - كما ذكرنا - سقوط هذا الجوهر عند الناس ، وقلة انتفاعهم به . . . واعتبر ذلك بانه قد يظهر الشيء الظريف مما يحدثه الناس من الآواني والأمتعة ، فما دام عزيزاً قليلاً ، فهو نفيس جليل أخذ الثمن ، فاذا فشا وكثر في ايدي الناس ، سقط عندهم وخست قيمته . . ونفاصة الأشياء من عزتها .

﴿ النبات وما فيه من ضروب المآرب ﴾

فكر يا مفضل في هذا النبات وما فيه من ضروب المآرب . فالثمار للغذاء ، والاتبان (١) للعلف ، والخطب للوقود ، والخشب لكل شيء من انواع التجارة وغيرها ، واللحاء (٢) والورق والأصول والعروق والصموغ لضروب من المنافع . . أرايت لو كنا نجد الثمار التي نغتذي بها مجموعة على وجه الأرض ، ولم تكن تنبت على هذه الأغصان الحاملة لها ،

(١) لم يرد في معاجم اللغة العربية لفظ الاتبان على معنى التبن المعروف ولعل اللفظ قد غيره النساخ والصحيح تبن .
(٢) اللحاء : قشر العود أو الشجر .

كم كان يدخل علينا من الخلل في معاشنا ، وان كان الغذاء موجوداً فان
المنافع بالحشب والخطب والاتبان وسائر ما عددناه كثيرة عظيم قدرها ،
جليل موقعها ، هذا مع ما في النبات من التلذذ بحسن منظره ، ونضارته التي
لا يعد لها شيء من مناظر العالم وملاهيته .

﴿ الربيع في النبات وسببه ﴾

فكر يا مفضل في هذا الربيع الذي جعل في الزرع ، فصارت الحبة
الواحدة تحلف مائة حبة . واكثر وأقل ، وكان يجوز للحبة أن تأتي بمثلها
فلم صارت تربع هذا الربيع إلا ليكون في الغلة (١) متسع ، لما يرد في
الارض من البذر ، وما يتقوت الزراع ، الى ادراك زرعها المستقبل ، ألا
ترى ان الملك لو أراد عمارة بلد من البلدان كان السبيل في ذلك أن يعطي
أهله ما يبدرونه في أرضهم وما يقوتهم الى ادراك زرعهم .

فانظر كيف نجدهذا المثال قد تقدم في تدبير الحكيم ، فصار الزرع
يربع هذا الربيع لينفي بما يحتاج اليه للقوت والزراعة ، وكذلك الشجر
والنبت والنخل يربع الربيع الكثير ، فانك ترى الاصل الواحد حوله
من فراخه أمراً عظيماً ، فلم كان كذلك إلا ليكون فيه ما يقطعه النياس ،
ويستعملونه في مآربهم ، وما يرد فيغرس في الارض ، ولو كان الاصل
منه يبقى منفرداً لا يفرخ ولا يربع لما أمكن أن يقطع منه شيء لعمل ولا
لغرس ، ثم كان ان اصابته آفة انقطع أصله ، فلم يكن منه خلف .

(١) الغلة - بالفتح - : الدخل من كراء دار وقائدة ارض ونحو ذلك
والجمع غلات وغلل .

﴿ بعض النباتات وكيف تصان ﴾

تأمل نبات هذه الجيوب من العدس والماش والبقلاء وما أشبه ذلك فانها تخرج في اوعية مثل الخراط (١) لتصونها وتحجبها من الآفات ، إلى أن تشتد وتستحكم ، كما قد تكون المشيمة (٢) على الجنين لهذا المعنى بعينه وأما البر (٣) وما أشبهه فانه يخرج مدرجاً في قشور صلاب على رؤوسها أمثال الأسنة من السنبل لئلا يمنع الطير منه ليتوفر على الزراع فان قال قائل : أوليس قد ينال الطير من البر والجوب ؟ قيل له : بلى على هذا قدر الامر فيها ، لأن الطير خلق من خلق الله تعالى وقد جعل الله تبارك وتعالى له في ما تخرج الارض حظاً ولكن حصنت الجوب بهذه الحجب لئلا يتمكن الطير منها كل التمكن فيعذب بها ويفسد الفساد الفاحش . فان الطير لو صادف الحب بارزاً ليس عليه شيء ، يحول دونه لاءكب عليه حتى يذسه أصلاً ، فكان يعرض من ذلك ان يبشم (٤) الطير فيموت ، ويخرج الزراع من زرعه صفراً ، فجعلت عليه هذه الوقايات لتصونه ، فينال الطائر منه شيئاً يسيراً يتقوت به ، ويبقى أكثره للانسان ، فانه أولى به ، إذ كان

(١) لم نجد للفظ « الخراط » هنا معنى يتسق ومراد الامام « ع » ولعله يريد الشكل المخروطى وهو ما يبتدى من سطح مستدير ويرتفع مستديراً حتى ينتهي إلى نقطة .

(٢) المشيمة : غشاء ولد الانسان يخرج معه عند الولادة ، جمعه : مشيم ومشام .

(٣) البر - بضم فتشديد - هو القمح ، الواحدة برّة .

(٤) يبشم الطعام : أي يتختم من الطعام .

هو الذي كدح فيه وشقى به ، وكان الذي يحتاج اليه اكثر مما يحتاج اليه الطير
﴿ الحكمة في خلق الشجر وأصناف النبات ﴾

تأمل الحكمة في خلق الشجر وأصناف النبات ، فإنها لما كانت
تحتاج إلى الغذاء الدائم كحاجة الحيوان ، ولم يكن لها أفواه كأفواه الحيوان
ولا حركة تنبعث بها لتناول الغذاء ، جعلت أصولها مركزه في الأرض
لتنزع منها الغذاء فتؤديه إلى الأغصان وما عليها من الورق والثمر فصارت
الأرض كالأم المربية لها ، وصارت أصولها التي هي كالأفواه ملتزمة للأرض
لتنزع منها الغذاء ، كما ترضع أصناف الحيوان أمهاتها ، ألم تر إلى عمود
الفساطيط (١) والخيم كيف تمد بالأطناب (٢) من كل جانب لتثبت منتصبه
فلا تسقط ولا تميل فهكذا تجد النبات كله له عروق منتشرة في الأرض
ممتدة إلى كل جانب لتمسكه وتقيمه ، ولو لا ذلك كيف كان يثبت هذا
النخل الطوال والدوح العظام في الريح العاصف ؟ .

فانظر إلى حكمة الخالق كيف سبقت حكمة الصناعة فصارت الحيلة
التي تستعملها الصناع في ثبات الفساطيط والخيم ، متقدمة في خلق الشجر ،
لأن خالق الشجر قبل صنعة الفساطيط والخيم . . ألا ترى عمدها وعيدانها
من الشجر ، فالصناعة مأخوذة من الحلقة .

﴿ خلق الورق ووصفه ﴾

تأمل يا مفضل خلق الورق فانك ترى في الورقة شبه العروق مبثوثة

(١) الفساطيط جمع فسطاط - بالضم أو الكسر - بيت من شعر .

(٢) الاطناب جمع طناب - بضمين - حبل طويل يشد به سرادق البيت

فيها أجمع ، فمنها غلاظ ممتدة في طولها وعرضها ، ومنها دقاق تتخلل تلك الغلاظ منسوجة نسجاً دقيقاً معجباً ، لو كان مما يصنع بالأيدي كصنعة للبشر لما فرغ من ورق شجرة واحدة في عام كامل ، ولا حثيج إلى آلات وحركة وعلاج وكلام ، فصار يأتي منه في أيام قلائل من الربيع ما يملأ الجبال والسهل وبقاع الأرض كلها بالحركة ولا كلام ، إلا بالارادة النافذة في كل شيء والأمر المطاع . . . واعرف مع ذلك العلة في تلك العروق الدقاق ، فانها جعلت تتخلل الورقة بأسرها ، لتسقيها وتوصل الماء إليها ، بمنزلة العروق المبيوثة في البدن ، لتوصل الغذاء الى كل جزء منه ، وفي الغلاظ منها معنى آخر ، فانها تمسك الورقة بصلابتها ومتانتها ، لئلا تنهتك وتمزق ، فترى الورقة شبيهة بورقة معمولة بالصنعة من خرق قد جعلت فيها عيدان ممدودة في طولها وعرضها لتماسك فلا تضرب . . . فالصناعة تحكي الخلقة وان كانت لا تدركها على الحقيقة .

﴿ العجم والنوى والعلة في خلقه ﴾

فكر في هذا العجم والنوى والعلة فيه ، فانه جعل في جوف الثمرة ليقوم مقام الغرس ان عاق دور الغرس عائق ، كما يحرز الشيء النفيس الذي تعظم الحاجة اليه في مواضع آخر ، فان حدث على الذي في بعض المواضع منه حادث وجد في موضع آخر ، ثم هو بعد يمسك بصلابته رخاوة الثمار ورقتها ، ولو لا ذلك لتشدخت (١) وتفسخت ، وأسرع اليها الفساد وبعضه يؤكل ويستخرج دهنه ، فيستعمل منه ضروب من المصالح ، وقد

(١) تشدخت : تكسرت .

ثبين لك موضع الأرب في العجم والنوى .

فكر الآن في هذا الذي تجده فوق النواة من الرطوبة ، وفوق العجم من العنبة ، فما العلة فيه ؟ ولما ذا يخرج في هذه الهيئة ؟ وقد كان يمكن أن يكون مكان ذلك ما ليس فيه ما كل كمثل ما يكون في الصدر (١) والدُّب (٢) وما أشبه ذلك . . فلم صار يخرج فوقه هذه المطاعم اللذيذة ، إلا ليستمتع بها الانسان ؟ .

﴿ موت الشجر وتجدد حياته وما في ذلك من ضروب التدبير ﴾

فكر في ضروب من التدبير في الشجر ، فانك تراه يموت في كل سنة مودة ، فتحترس الحرارة الغريزية في عوده ، ويتولد فيه مواد الثمار ثم يحبي وينتشر ، فيأتيك بهذه الفواكه نوعاً بعد نوع ، كما تقدم اليك أنواع الأطعمة التي تعالج بالأيدي واحداً بعد واحد ، فترى الأغصان في الشجر تتلفاك بثمارها حتى كأنها تناولسكها عن يد ، وترى الرياحين تتلفاك في أفنانها (٣) كأنها تجثك بانفسها ، فلمن هذا التقدير إلا لمقدر حكيم وما العلة فيه إلا تفكيه الانسان بهذه الثمار والأنوار ؟ . والعجب من اناس جعلوا مكان الشكر على النعمة جحود المنعم بها .

(١) الصدر - بالكسر - شجر النبق جمعه سدور .

(٢) الدلب - بالضم - شجر عظيم عريض الورق لا زهر له ولا ثمر والواحدة دلبة .

(٣) الافنان جمع فنن وهو الغصن المستقيم .

﴿ خلق الرمانة وأثر العمد فيه ﴾

واعتبر بخلق الرمانة وما ترى فيها من اثر العمد والتدبير ، فانك ترى فيها كاشال التلال ، من شحم مركوم في نواحيها ، وحب مرصوف صفًا كنعحو ما ينضد بالأيدي . . وترى الحب مقسوماً أقساماً ، وكل قسم منها ملفوفاً بلغائف من حجب منسوجة أعجب النسج والطفه ، وقشره يضم ذلك كله .

فمن التدبير في هذه الصنعة انه لم يكن يجوز أن يكون حشو الرمانة من الحب وحده ، وذلك ان الحب لا يمد بعضه بعضاً ، فجعل ذلك الشحم خلال الحب ليمده بالغذاء . . ألا ترى ان أصول الحب مركوزة في ذلك الشحم ، ثم لف بتلك اللغائف لتضمه وتمسكه فلا يضطرب ، وغشى فوق ذلك بالقشرة المستحصفة لتصونه وتحصنه من الآفات ، فهذا قليل من كثير من وصف الرمانة ، وفيه أكثر من هذا لمن أراد الاطناب (١) والتذرع (٢) في الكلام ، وليكن فيما ذكرت لك كفاية في الدلالة والاعتبار .

﴿ حمل اليعطين وما فيه من التدبير والحكمة ﴾

فذكر يا مفضل في حمل اليعطين الضعيف مثل هذه الثمار الثقيلة من الدباء (٣) والقثاء (٤) والبطيخ وما في ذلك من التدبير والحكمة ، فانه

(١) يقال : اطنب في الوصف أو القول ، أي بالغ .

(٢) التذرع في الكلام هو الاكثار منه والافراط فيه .

(٣) لم نقف عليه .

(٤) القثاء - بالضم - نوع من النبات ثمره يشبه ثمر الخيار الواحدة قثاءة

حين قدر أن يحمل مثل هذه الثمار جعل نباته منبسّطاً على الأرض ، ولو كان ينتصب قائماً كما ينتصب الزرع والشجر ، لما استطاع أن يحمل مثل هذه الثمار الثقيلة ، ولتقص قبل ادراكها وانتهائها الى غاياتها . فانظر كيف صار يمتد على وجه الأرض ليلقي عليها ثماره فتحملها عنه فتري الاصل من القرع (١) والبطيخ مفترشاً للأرض ، وثماره مبعثرة عليها وحواليه كأنه هرة ممتدة ، وقد اكتنفتها جرائها (٢) لترضع منها .

﴿ موافاة أصناف النبات في الوقت المشاكل لها ﴾

وانظر كيف صارت الأصناف توافي في الوقت المشاكل لها ، من حمارة (٣) الصيف ووقدة الحرف لتلقاها النفوس بانسراح وتشوق اليها ، ولو كانت توافي الشتاء لوافقت من الناس كراحة لها واقشعراراً (٤) منها مع ما يكون فيها من المضرة للابدان . ألا ترى انه ربما ادرك شيء من الخيار في الشتاء ، فيمتنع الناس من أكله إلا الشره الذي لا يمتنع من اكل ما يضره ويسقم معدته .

﴿ في النخل وخلقة الجذع والخشب وفوائده ذلك ﴾

فكر يا مفضل في النخل ، فانه لما صار فيه إناث تحتاج الى التلقيح

(١) القرع - بالفتح - نوع من اليقطين ، الواحدة قرعة .

(٢) في الاصل المطبوع « اجزأؤها » وهذا تصحيف شنيع ، والجاء جمع جرو - بتثنية الجيم - صغير كل شيء حتى الرمان والبطيخ - وغلب على ولد الكلب والأسد ، والمراد هنا بالجاء اولاد الهرة .

(٣) الحمارة : شدة الحر والجمع حماز .

(٤) اقشعر : تغير لونه .

جعلت فيه ذكورة للقاح من غير غراس ، فصار الذكر من النخل بمنزلة الذكر من الحيوان الذي يلقح الاناث لتجمل وهو لا يحمل . تأمل خلفة الجذع كيف هو ؟ فانك تراه كالنسوج نسجا من خيوط ممدودة كالسدى واخرى معه معترضة كاللحمة (١) كنعجو ما ينسج بالأيدي ، وذلك ليشتد ويصلب ولا يتقصف من حمل القنوات (٢) الثقيلة وهز الرياح العواصف اذا صار نخلة وليتهيا للسقوف والجسور وغير ذلك مما يتخذ منه اذا صار جذعا وكذلك ترى الخشب مثل النسج فانك ترى بعضه مداخل بعضه بعضا طولا وعرضا كتداخل اجزاء اللحم ، وفيه مع ذلك متانة ليصلح لما يتخذ منه من الآلات فانه لو كان مستحوصفا (٣) كالخجارة لم يمكن ان يستعمل في السقوف وغير ذلك مما يستعمل فيه الخشب كالأبواب والاسرة والتوايت وما أشبه ذلك . . . ومن جسيم المصالح في الخشب انه يطفو على الماء ، فكل الناس يعرف هذا منه ، وليس كالهم يعرف جلالة الأمر فيه ، فلولا هذه الخلة كيف كانت هذه السفن والاطراف (٤) تحمل

(١) اللحمة - بالضم - ماسدي به بين سدى الثوب أي مانسج عرضا وهو خلاف سواه والجمع لحم .

(٢) في الاصل المطبوع - قنوان - ولا معنى لها هنا . . . والقنوات جمع قناة وهي العصا الغليظة ، وقد أراد بها الامام عليه السلام هنا هي سعف النخل الغليظة .

(٣) أراد بالمستحوصف : الشديد المحكم كانه الحجارة .

(٤) كذا في النسخ ، والظرف لا يجمع على لفظ اطراف وانما يقال للجمع ظروف .

أمثال الجبال من الحولة ، وأنى كان ينال الناس هذا الرفق وخفة المؤنة في حمل التجارات من بلد إلى بلد ، وكانت تعظم المؤنة عليهم في حملها حتى يلقى كثير مما يحتاج اليه في بعض البلدان مفقوداً أصلاً أو عسر وجوده .

﴿ العقاقير واختصاص كل منها ﴾

فكر في هذه العقاقير وما خص بها كل واحد منها من العمل في بعض الأدوية ، فهذا يغور في المفصل فيستخرج الفضول الغليظة مثل الشيطرج (١) وهذا ينزف المرة السوداء (٢) مثل الافتيمون (٣) وهذا ينفي الرياح مثل السكينج (٤) وهذا يحلل الأورام ، وأشبه هذا من أفعالها فمن جعل هذه القوى فيها إلا من خلقها للمنفعة ؟ ومن فطن الناس لها إلا من جعل هذا فيها ؟ . ومتى كان يوقف على هذا منها بالعرض والانفاق

(١) جاء في تذكرة الانطاكي : شيطرج هندي هو الخامشة وهو نبت يوجد بالقبور الخراب له ورق عريض ودقيق ينتثر أعلاه اذا برد الجو وزهره أحمر إلى بياض ، يخلف بزر أسود أصغر من الخردل ورائحته ثقيلة حادة وطعمه الى مرارة .

(٢) المرة السوداء : خلط من أخلاط البدن والجمع مزار .

(٣) افتيمون لفظ يوناني معناه دواء الجنون وهو نبات له أصل كالجزر شديد الحمرة وفروع كالخيوط الليفية تحف باوراق دقاق خضر وزهر الى حمرة وغبرة وبزر دون الخردل أحمر إلى صفرة يلتف بما يليه .

(٤) سكينج أو سكينج هو شجرة بفارس ، ويورد الأطباء الاقدمون اوصافاً طيبة كثيرة من السكينج ويدكرون انه يذهب عدة أمراض لا مجال لذكرها هنا .

كما قال القائلون ؟ وهب الانبياء فطن لهذه الاشياء بذهنه ولطيف رويته وتجاربه ، فالبهايم كيف فطنت لها حتى صار بعض السباع يتداوى من جراحه ان اصابته ببعض العقاقير فيبرأ ، وبعض الطير يحترقن من الحصر يضفيه بماء البحر فيسلم ، وأشياء هذا كثير ، ولعلك تشكك في هذا النبات النابت في الصحاري والبراري حيث لا انس ولا أنيس ، فتظن انه فضل لا حاجة اليه ، وليس كذلك ، بل هو طعم لهذه الوحوش ، وحبه علف للطير ، وعوده وأفناناه حطب ، فيستعمله الناس ، وفيه بعد أشياء تعالج بها الابدان ، واخرى تدبغ بها الجلود ، واخرى تصبغ الامتعة ، وأشياء هذا من المصالح . . الست تعلم ان من اخس النبات وأحققره هذا البردى وما اشبهها ، ففيها مع هذا من ضروب المنافع ، فقد يتخذ من البردى القراطيس التي يحتاج اليها الملوك والسوقة ، والحصر التي يستعملها كل صنف من الناس ، ويعمل منه الغلف التي يوقى بها الاواني ، ويجعل حشوا بين الظروف في الاسقاط ، لسكيلا تعيب وتنكسر ، وأشياء هذا من المنافع فاعتبر بما ترى من ضروب المآرب في صغير الخلق وكبيره وبما له قيمة وما لا قيمة له ، واخس من هذا واحقره الزبل ، والعدرة التي اجتمعت فيها الخساسة والنجاسة معا ، وموقعها من الزروع والبقول والخضر أجمع الموقع الذي لا يعدله شيء ، حتى ان كل شيء من الخضر لا يصلح ولا يزكو الا بالزبل والسماد الذي يستقذره الناس ، ويكرهون الدنو منه .

واعلم انه ليس منزلة الشيء على حسب قيمته ، بل هما قيمتان مختلفتان بسوقين ، وربما كان الخسيس في سوق المكتسب نفيسا في سوق العلم ،

فلا تستصغر العبرة في الشيء لصغر قيمته ، فلو فطن طالبوا السكيا لما
في العذرة ، لاشتروها بانفس الأثمان وغالوا بها .



قال المفضل : وحان وقت الزوال ، فقام مولاي إلى الصلاة وقال
بكر إلي غداً إن شاء الله تعالى . . فانصرفت وقد تضاعف سروري بما
عرفنيه ، مبتهجاً بما آتانيه ، حامداً لله على ما منحنيه . . فبت ليلتي مسروراً



المجلس الرابع

قال المفضل : فلما كان اليوم الرابع بكرت إلى مولاي فاستؤذن لي ، فامرني بالجلوس فجلست ، فقال عليه السلام : منا التحميد والتسبيح والتعظيم والتقديس ، للاسم الاقدم ، والنور الأعظم ، العلي العلام ، ذى الجلال والاكرام ، ومنشىء الأنام ، ومقتي العوالم والدهور ، وصاحب السر المستور ، والغيب المحطور ، والاسم المحزون ، والعلم المسكنون ، وصلواته وبركاته على مبالغ وحيه ، ومؤدي رسالته ، الذي بعثه بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله باذنه ، وسراجاً منيراً ، ليهلك من هلك عن بينة . ويحيى من حي عن بينة ، فعليه وعلى آله من بارئه الصلوات الطيبات ، والتحيات الزاكيات الناميات ، وعليه وعليهم السلام والرحمة والبركات في الماضين والغابرين ، أبد الآبدين ، ودهر الدهارين ، وهم أهله ومستحقوه .

﴿ الموت والفناء وانتقاد الجهال وجواب ذلك ﴾

قد شرحت لك يا مفضل من الأدلة على الخلق ، والشواهد على صواب التدبير والعمد في الانسان والحيوان والنبات والشجر وغير ذلك . مافيه عبرة لمن اعتبر ، وأنا أشرح لك الآن الآفات الحادثة في بعض الازمان التي اتخذها أناس من الجهال ذريعة إلى جحود الخلق والخالق والعمد والتدبير ، وما أنكرت المعطلة والمنانية من المبكاره والمصائب ، وما أنكروه من الموت والفناء ، وما قاله أصحاب الطبائع ، ومن زعم ان كون

الاشياء بالعرض والاتفاق ، ليتسع ذلك القول في الرد عليهم قائلهم الله
أنى يؤفكون .

(الآفات ونظر الجهال اليها والجواب على ذلك)

أخذ أناس من الجهال هذه الآفات الحادثة في بعض الازمان
- كمثل الوباء واليرقان والبرد (١) والجراد - ذريعة الى جحود الخالق
والتدبير والخلق ، فيقال في جواب ذلك : انه ان لم يكن خالق ومدبر فلم
لا يكون ما هو اكثر من هذا وأفزع ؟ فمن ذلك أن تسقط السماء على
الارض ، وتهوى الارض فتذهب سفلا ، وتتخلف الشمس عن الطلوع
أصلا ، وتجف الانهار والعيون حتى لا يوجد ماء للشفة ، وتركد الريح ،
حتى تحم الاشياء وتفسد ، ويفيض ماء البحر على الارض فيغرقها ، ثم هذه
الآفات التي ذكرناها من الوباء والجراد وما أشبه ذلك ما بالها لا تدوم
وتمتد ، حتى تحتاج كل ما في العالم ، بل تحدث في الاحايين ، ثم لا تلبث
ان ترفع . افلا ترى ان العالم بصان ويحفظ من تلك الاحداث الجليلة
التي لو حدث عليه شيء منها كان فيه بواره ويلذع (٢) أحيانا بهذه الآفات
اليسيرة ، لتأديب الناس وتقويمهم ، ثم لا تدوم هذه الآفات ، بل تكشف
عنهم عند القنوط منهم ، فيكون وقوعها بهم موعظة وكشفها عنهم رحمة .
وقد انكرت المنانية من المسكاره والمصائب التي تصيب الناس فكلأها

(١) ذهب ذكر اليرقان والبرد سابقا .

(٢) يقال لذعته النار أي أحرقتة ولذعه بلسانه أي أوجعه بكلام .

وفي بعض النسخ باهمال الاول واعجم الثاني من لدغ العقرب .

يقول : ان كانت للعالم خالق رؤوف رحيم ، فلم تحدث فيه هذه الامور المكروهة . . . والقائل بهذا القول يذهب إلى انه ينبغي أن يكون عيش الانسان في هذه الدنيا صافياً من كل كدر ، ولو كان هكذا كان الانسان يخرج من الاشهر (١) والعتو (٢) إلى ما لا يصلح في دين ولا دنيا كالذي ترى كثيراً من المترفين ومن نشأ في الجدة والامن ، يخرجون اليه حتى ان أحدهم ينسى انه بشر ، وانه مرئوب او ان ضرراً يمسّه ، او ان مكروهاً ينزل به ، او انه يجب عليه ان يرحم ضعيفاً ، او يواسي فقيراً ، أو يرثي لمبتلى ، أو يتحنن على ضعيف ، أو يتعطف على مكروب ، فاذا عضته المكروه ووجد مضضها ، اتمط وابصر كثيراً مما كان جهله وغفل عنه ، ورجع إلى كثير مما كان يجب عليه .

والمنكرون لهذه الامور المؤذية بمنزلة الصبيان الذين يذمون الادوية المرة البشعة ، ويتسخطون من المنع من الاطعمة الضارة ، ويتكروهون الادب والادب والعمل ، ويحبون ان يتفرغوا للهو والبطالة ، وينالوا كل مطعم ومشرب ، ولا يعرفون ما تؤذيهم اليه البطالة من سوء النشو والعادة ، وما تعقبهم الاطعمة اللذيذة الضارة من الادواء والاسقام ، وما لهم في الادب من الصلاح ، وفي الادوية من المنفعة ، وان شاب ذلك بعض الكراهة ، فان قالوا : فلم لم يكن الانسان معصوماً من المساوي ، حتى لا يحتاج الى أن تُلذّعه هذه المكروه ، قيل : إذا كان يكون غير محمود على حسنة يأتيها ،

(١) الاشهر : البطر .

(٢) العتو - بالضم - الاستكبار وتجاوز الحد .

ولا مستحقاً للثواب عليها . فان قالوا : وما كان يضره أن لا يكون محموداً على الحسنات مستحقاً للثواب ، بعد أن يصير الى غاية النعيم والذات ؟ . قيل لهم : اعرضوا على امرئ صحيح الجسم والعقل ، ان يجلس منمما ، ويكفي كلما يحتاج اليه بلا سعي ولا استحقاق ، فانظروا هل تقبل نفسه ذلك ، بل ستجدونه بالقليل مما يناله بالسعي والحركة اشد اغتباطاً وسروراً منه بالكثير مما يناله بغير الاستحقاق ، وكذلك نعيم الآخرة ايضاً يكمل لأهله بان ينالوه بالسعي فيه والاستحقاق له فالنعمة على الانسان في هذا الباب مضاعفة ، فان أعد له الثواب الجزيل على سعيه في هذه الدنيا وجعل له السبيل الى ان ينال ذلك بسعي واستحقاق ، فيكمل له السرور والاغتيال بما يناله منه . . فان قالوا : اوليس قد يكون من الناس من يركن الى ما نل من خير ، وان كان لا يستحقه فما الحاجة في منع من رضى ان ينال نعيم الآخرة على هذه الجملة ؟ قيل لهم : ان هذا باب لو صح للناس لخرجوا الى غاية الكلب (١) والضرارة على الفواحش ، وانتهاك المحارم ، فمن كان يكف نفسه عن فاحشة او يتحمل المشقة في باب من ابواب البر لوثق بانه صائر الى النعيم لا محالة ، او من كان يأمن على نفسه واهله وماله من الناس لو لم يخاف الحساب والعقاب ، فكان ضرر هذا الباب سينال الناس

(١) في الاصل المطبوع الكلية ولا معنى للفظ هنا ، والصحيح ما ذكرناه اذ الكلب - بفتحيتين - هو داء يشبه الجنون يأخذ الكلاب فتعض الناس فتكلب الناس ايضاً اذا تمنعوا عن استعمال لقاح الطبيب الفرنسي المعروف باستور .

في هذه الدنيا قبل الآخرة ، فيكون في ذلك تعطيل العدل والحكمة معا ،
وموضع للطعن على التدبير بخلاف الصواب ووضع الامور في غير مواضعها
{ لما ذا تصيب الآفات جميع الناس وما الحجة في ذلك }

وقد يتعلق هؤلاء بالآفات التي تصيب الناس فتعم البر والفاجر
أويدتلى بها البر ويسلم الفاجر منها ، فقالوا : كيف يجوز هذا في تدبير الحكيم
وما الحجة فيه ؟ فيقال لهم . ان هذه الآفات وان كانت تنال الصالح والطالح
جميعاً . فان الله عز وجل جعل ذلك صلاحاً للصنفين كليهما ، اما الصالحون
فان الذي يصيبهم من هذا يزدحم نعم ربهم عندهم في سالف أيامهم فيحدوهم
ذلك على الشكر والصبر ، وأما الطالحون فان مثل هذا اذا نالهم كسر شرتهم
وردهم عن المعاصي والفواحش ، وكذلك يجعل لمن سلم منهم من الصنفين
صلاحاً في ذلك ، اما الابرار فانهم يغتبطون بما هم عليه من البر والصلاح
ويزدادون فيه رغبة وبصيرة واما الفجار فانهم يعرفون رافة ربهم ، وتطوله
عليهم بالسلامة من غير استحقاق . فيحضهم ذلك على الرافة بالناس ،
والصفح عن أساء اليهم . . ولعل قائل يقول : ان هذه الآفات التي تصيب
الناس في أموالهم ، فما قولك فيما يبتلون به في ابدانهم ، فيكون فيه تلفهم
كمثل الحرق والعرق والسيل والخسف ؟ فيقال له ان الله جعل في هذا ايضاً
صلاحاً للصنفين جميعاً ، اما الابرار فلما لهم في مفارقة هذه الدنيا من الراحة
من تكاليفها ، والنجاة من مكارهاها ، واما الفجار فلما لهم في ذلك من
تمحيص أوزارهم ، وحبسهم عن الازدياد منها ، وجملة القول ان الخالق تعالى
ذكره بحكمته وقدرته قد يصرف هذه الامور كلها الى الخير والمنفعة ، فكما

انه اذا قطعت الريح شجرة او قطعت نخلة ، أخذها الصانع الرفيق واستعملها في ضروب من المنافع ، فكذلك يفعل المدبر الحكيم في الآفات التي تنزل بالناس في أبدانهم واموالهم ، فيصيرها جميعاً الى الخير والمنفعة . . فان قال ولم تحدث على الناس ؟ قيل له : لكيلا يركنوا الى المعاصي من طول السلامة ، فيبالغ الفاجر في ركوب المعاصي ، ويفتر الصالح عن الاجتهاد في البر فان هذين الأمرين جميعاً يغلبان على الناس في حال الخفض والدعة وهذه الحوادث التي تحدث عليهم تردعهم وتنبههم على مافيه رشدهم ، فلو خلوا منها لغلوا في الطغيان والمعصية ، كغلا الناس في اول الزمان . حتى وجب عليهم البوار بالطوفان وتطهير الارض منهم .

﴿ الموت والفناء وانتقاد الجاهل وجواب ذلك ﴾

ومما ينتقده الجاحدون للعمد والتقدير الموت والفناء . فانهم يذهبون الى انه ينبغي أن يكون الناس مخلصين في هذه الدنيا . مبرئين من هذه الآفات ، فينبغي ان يساق هذا الأمر الى غايته ، فينظر ما محصوله .

أف رأيت لو كان كل من دخل العالم ويدخله ييقون ، ولا يموت احد منهم ، ألم تكن الأرض تضيق بهم ، حتى تعموزهم المساكن والمزارع والمعاش ، فانهم - والموت يفنيهم أولاً فاولاً - يتنافسون في المساكن والمزارع ، حتى تنشب بينهم في ذلك الحروب ، وتسفك فيهم الدماء ، فكيف كانت تكون حالهم لو كانوا يولدون ولا يموتون ، وكان يغلب عليهم الحرص والشره ، وقساوة القلوب ، فلو وثقوا بانهم لا يموتون لما قنع الواحد منهم بشيء يناله ، ولا افرج لأحد عن شيء يسأله ، ولا سلا

عن شيء مما يحدث عليه ، ثم كانوا يملون الحياة وكل شيء من أمور الدنيا كما قد يمل الحياة من طال عمره ، حتى يتمنى الموت والراحة من الدنيا . . فان قالوا : انه كان ينبغي انه يرفع عنهم المكافاة والأوصاب حتى لا يتمنوا الموت ولا يشتاقوا اليه . فقد وصفنا ما كان يخرجهم اليه من العتو والأشر الحامل لهم على ما فيه فساد الدنيا والدين . . وان قالوا : انه كان ينبغي أن لا يتوالدوا كيلا تضيق عنهم المساكن والمعاش . قيل لهم : اذا كان يحرم أكثر هذا الخلق دخول العالم والاستمتاع بنعم الله تعالى ومواهبه في الدارين جميعاً إذا لم يدخل العالم إلا قرن (١) واحد ، لا يتوالدون ولا يتناسلون . . فان قالوا : انه كان ينبغي أن يخلق في ذلك القرن الواحد من الناس مثل ما خلق ويخلق الى انقضاء العالم ، يقال لهم : رجع الأمر الى ما ذكرنا من ضيق المساكن والمعاش عنهم ، ثم لو كانوا لا يتوالدون ولا يتناسلون لذهب موضع الانس بالقرابات وذوي الارحام والانتصار بهم عند الشدائد ، وموضع تربية الاولاد والسرور بهم ، ففي هذا دليل على ان كلما تذهب اليه الأوهام - سوى ما جرى به التدبير - خطأ وسفه من الرأي والقول .

(الظعن على التدبير من جهة أخرى والجواب عليه)

ولعل طاعناً يطعن على التدبير من جهة أخرى فيقول كيف يكون هاهنا تدبير ، ونحن نرى الناس في هذه الدنيا من عزيز ، فالقوي يظلم ويغصب ، والضعيف يظلم ويسام الخسف ، والصالح فقير مبتلى ، والفاسق

(١) المراد بالقرن هنا أهل زمان واحد والجمع قرون .

معافى مؤسّع عليه ، ومن ركب فاحشة او انتهك محرماً لم يعاجل بالعقوبة .
فلو كان في العالم تدبير لجرت الامور على القياس القائم ، فكان الصالح
هو المرزوق ، والطالح هو المحروم ، وكان القوي يمنع من ظلم الضعيف ،
والمنتهمك للمحارم يعاجل بالعقوبة . . فيقال في جواب ذلك : ان هذا لو
كان هكذا لذهب موضع الاحسان الذي فضل به الانسان على غيره من
الخلق ، وحمل النفس على البر والعمل الصالح احتساباً للثواب ، وثقة بما
وعده الله عنه ، ولصار الناس بمنزلة الدواب التي تساس بالعصا والعلف ،
ويلع لها بكل واحد منهما ساعة فساعة فتستقيم على ذلك ، ولم يكن أحد
يعمل على يقين بثواب أو عقاب ، حتى كان هذا يخرجهم عن حد الانسية
إلى حد البهائم ، ثم لا يعرف ما غاب ، ولا يعمل إلا على الحاضر من نعيم
الدنيا ، وكان يحدث من هذا أيضاً أن يكون الصالح انما يعمل للرزق
والسعة في هذه الدنيا ، ويكون الممتنع من الظلم والفواحش انما يكف عن
ذلك لترقب عقوبة تنزل به من ساعته ، حتى تكون أفعال الناس كلها تجري
على الحاضر لا يشوبه شيء من اليقين بما عند الله ، ولا يستحقون ثواب
الآخرة والنعيم الدائم فيها ، مع ان هذه الامور التي ذكرها الطاعن من
الغنى والفقر والعافية والبلاء ليست بحجارية على خلاف قياسه ، بل قد تجري
على ذلك أحياناً والامر المفهوم .

فقد ترى كثيراً من الصالحين يرزقون المال لضروب من التدبير
وكيلا يسبق الى قلوب الناس ان الكفار هم المرزوقون ، والابرار هم
المحرومون ، فيؤثرون الفسق على الصلاح ، وترى كثيراً من الفساق

يعاجلون بالعقوبة اذا تفاقم طغيانهم وعظم ضررهم على الناس وعلى انفسهم كما عوجل فرعون (١) بالغرق ، وبخت نصر (٢) بالتيه وبلبيس (٣) بالقتل وان امهل بعض الاشرار بالعقوبة ، وآخر بعض الاخيار بالشواب الى الدار الآخرة ، لأسباب تخفى على العباد لم يكن هذا مما يبطل التدبير ، فان مثل هذا قد يكون من ملوك الأرض ولا يبطل تدبيرهم ، بل يكون تأخيرهم ما أخروه ، وتعجيلهم ما عجلوه داخل في صواب الرأي والتدبير واذا كانت الشواهد تشهد ، وقياسهم يوجب ان للاشياء خالفاً حكماً قادراً فما يمنعه أن يدبر خلقه ، فانه لا يصلح في قياسهم أن يكون الصانع يهمل صنعته إلا باحدى ثلاث خلال إما عجز وإما جهل وإما شرارة ، وكل هذا محال في صنعته عز وجل وتعال ذكره ، وذلك ان العاجز لا يستطيع أن يأتي بهذه الخلائق الجليلة العجيبة ، والجاهل لا يهتدى لما فيها من الصواب والحكمة

(١) قصة غرق فرعون في البحر معروفة في الكتب المقدسة ، والقران الكريم يشير اليها في أكثر من موضع واحد .

(٢) أو نبوخذ نصر كان أعظم ملوك الكلدانيين ، وملك في بابل من سنة ٦٠٤ إلى سنة ٥٦١ ق م وقد وصف بالقوة والبأس وعد من أبطال التاريخ في الشرق ، وجاء ذكره في التوراة كثيراً لأنه عاقب الامم الغربية عقاباً شديداً ، وهاجم اليهود - سكان مملكة يهوذا الصغيرة - هجوماً صاعقاً بعد أن أجلى أكثرهم الى بابل ودمر عاصمتهم اورشليم تدميراً شديداً (١) السميت - بالفتح - الطريق والمحجة والجمع سموت .

(٣) بلبيس كذا في الاصل وهو غير معروف عند المؤرخين ، ولم نجده فيما بين ايدينا من الكتب .

والشرير لا يتناول خلقها وانشائها ، وإذا كان هذا هكذا وجب أن يكون الخالق لهذه الخلائق يديرها لا محالة ، وإن كان لا يدرك كنه ذلك التدبير ومخارجه ، فإن كثيراً من تدبير الملوك لا تفهمه العامة ولا تعرف أسبابه ، لأنها لا تعرف دخيلة أمر الملوك وأسرارهم فإذا عرف سببه وجد قائماً على الصواب والشاهد المحنة . ولو شككت في بعض الأدوية والأطعمة فيتين لك من جهتين أو ثلاث أنه حار أو بارد ، ألم تكن ستقضي عليه بذلك وتنفي الشك فيه عن نفسك ؟ فما بال هؤلاء الجهلة لا يقضون على العالم بالخلق والتدبير مع هذه الشواهد الكثيرة وأكثر منها ما لا يحصى كثرة ولو كان نصف العالم وما فيه مشكلاً صوابه ، لما كان من حزم الرأي وسمت (١) الأدب أن يقضي على العالم بالاهمال لأنه كان في النصف الآخر وما يظهر فيه من الصواب ، واتقان ما يردع الوهم عن التسرع إلى هذه القضية ، فكيف وكلما فيه إذا فتنش وجد على غاية الصواب ؟ حتى لا يخطر بالبال شيء إلا وجد ما عليه الخلقة أصح وأصوب منه .

﴿ اسم هذا العالم بلسان اليونانية ﴾

واعلم يا مفضل أن اسم هذا العالم بلسان اليونانية الجاري المعروف عندهم « قوسموس » وتفسيره الزينة ، وكذلك سمته الفلاسفة ومن ادعى الحكمة ، أفكانوا يسمونه بهذا الاسم إلا لما رأوا فيه من التقدير والنظام فلم يرضوا أن يسموه تقديرًا ونظامًا حتى يسموه زينة ، ليخبروا أنه مع ما هو عليه من الصواب والاتقان ، على غاية الحسن والبهاء .

(١) السميت - بالفتح - الطريق والمحجة والجمع سموت ،

﴿ عمى ماني عن دلائل الحكمة وادعاؤه علم الاسرار ﴾

اعجب يا مفضل من قوم لا يقضون على صناعة الطب بالخطأ ، وهم يرون الطبيب يخطئ ، ويقضون على العالم بالاهمال ، ولا يرون شيئاً منه مهملاً ، بل أعجب من أخلاق من ادعى الحكمة ، حتى جهلوا مواضعها في الخلق ، فارسلوا السننهم بالذم للخالق جل وعلا . . بل العجب من الخذول (ماني) حين ادعى علم الاسرار وعمى عن دلائل الحكمة في الخلق حتى نسبه إلى الخطأ ونسب خالقه إلى الجهل تبارك الحكيم الكريم .

﴿ انتقاد المعطلة فيما راموا أن يدركوا بالحس ما لا يدرك بالعقل ﴾

وأعجب منهم جميعاً (المعطلة) الذين راموا أن يدركوا بالحس ما لا يدرك بالعقل ، فلما أعوزهم ذلك ، خرجوا إلى الجحود والتكذيب ، فقالوا ولم لا يدرك بالعقل ؟ قيل لأنه فوق مرتبة العقل ، كما لا يدرك البصر ما هو فوق مرتبته . . فانك لو رأيت حجراً يرتفع في الهواء علمت ان رامياً رمى به ، فليس هذا العلم من قبل البصر ، بل من قبل العقل ، لأن العقل هو الذي يميزه ، فيعلم ان الحجر لا يذهب علواً من تلقاء نفسه . . أفلا ترى كيف وقف البصر على حده ، فلم يتجاوزه ، فكذلك يقف العقل على حده من معرفة الخالق فلا يعدوه ، واسكن يعقله بعقل أقر أن فيه نفساً ولم يعاينها ، ولم يدركها بحاسة من الحواس .

﴿ معرفة العقل للخالق معرفة اقرار لا معرفة إحاطة ﴾

وعلى حسب هذا أيضاً نقول : ان العقل يعرف الخالق من جهة توجب عليه الاقرار ، ولا يعرفه بما يوجب له الاحاطة بصفته . . فان قالوا

فكيف يكاف العبد الضعيف معرفته بالعقل اللطيف ، ولا يحيط به ؟ قبل
لهم انما كاف العباد من ذلك ما في طاقتهم أن يبلغوه ، وهو أن يوقفوا به
ويقفوا عند أمره ونهيه ، ولم يكلفوا الاحاطة بصفته ، كما ان الملك لا يكاف
رعيته أن يعلموا أطويل هو أم قصير ، وأبيض هو أم أسمر ، وانما يكلفهم
الاذعان لسلطانه ، والانتهاى إلى أمره . ألا ترى ان رجلا لو أتى باب
الملك . فقال : اعرض علي نفسك حتى اتقصى معرفتك ، وإلا لم أسمع لك
كان قد أحل نفسه بالعقوبة . . فكذا القائل انه لا يقر بالخالق سبحانه ،
حتى يحيط بكنهه متعرضا لسلطانه . . فان قالوا : أوليس قد نصفه ؟ فنقول
هو العزيز الحكيم الجواد الكريم ؟ قيل لهم كل هذه صفات اقرار ،
وليست صفات احاطة ، فانا نعلم أنه حكيم ، ولانعلم بكنهه ذلك منه وكذلك
قد ير وجواد وسائر صفاته ، كما قد نرى السماء فلا ندري ما جوهرها ،
ونرى البحر ولا ندري أين منتهاه ، بل فوق هذا المثل بما لا نهاية له ،
ولأن الأمثال كلها تقصر عنه ، ولاكنها تقود العقل الى معرفته . . فان
قالوا : ولم يختلف فيه ؟ قيل لهم : لقصر الأوهام عن مدى عظمته ،
وتعدبها اقدارها في طلب معرفته ، وانها تروم الاحاطة به ، وهي تعجز عن
ذلك وما دونه .

﴿ الشمس واختلاف الفلاسفة في وضعها وشكلها ومقدارها ﴾

فمن ذلك هذه الشمس التي تراها تطلع على العالم ولا يوقف على
حقيقة أمرها . . . ولذلك كثرت الأقاويل فيها ، واختلفت الفلاسفة
المذكورون في وصفها ، فقال بعضهم هو فلك أجوف مملوء نارا ، له فم

يبحث بهذا الوهيج والشعاع . . وقال آخرون هو سحابة . . وقال آخرون هو جسم زجاجي ، يقل نارية في العالم ، ويرسل عليه شعاعها . . وقال آخرون هو صفو لطيف ينعقد من ماء البحر . . وقال آخرون هو أجزاء كثيرة مجمعة من النار . . وقال آخرون هو من جوهر خالص سوى الجواهر الأربعة . ثم اختلفوا في شكلها فقال بعضهم هي بمنزلة صفيحة عريضة . . وقال آخرون هي كالكرة المدحرجة . . وكذلك اختلفوا في مقدارها . . فزعم بعضهم انها مثل الأرض سواء . . وقال آخرون بل هي أقل من ذلك . وقال آخرون بل هي أعظم من الجزيرة العظيمة . وقال أصحاب الهندسة هي أضعاف الأرض مائة وسبعين مرة ففي اختلف هذه الأقاويل منهم في الشمس ، دليل على انهم لم يقفوا على الحقيقة من أمرها ، فاذا كانت هذه الشمس التي يقع عليها البصر ، ويدركها الحس ، قد عجزت العقول عن الوقوف على حقيقتها ، فكيف ما لطف عن الحس واستتر عن الوهم ؟ . فان قالوا : ولم استتر ؟ قيل لهم : لم يستتر بحيلة يخلص اليها ، كمن يحتجب من الناس بالابواب والستور . وانما معنى قولنا استتر انه لطف عن مدى ما تبلغه الأوهام ، كما لطفت النفس ، وهي خالق من خلقه . وارتفعت عن ادراكها بالنظر . . فان قالوا ولم لطف تعالى عن ذلك علواً كبيراً ؟ كان ذلك خطأ من القول ، لأنه لا يليق بالذي هو خالق كل شيء إلا أن يكون مبايناً لكل شيء ، متعالياً عن كل شيء سبحانه وتعالى .

﴿ الحق الذي تطلب معرفته من الاشياء أربعة أوجه وتفصيل ذلك ﴾

فان قالوا : كيف يعقل أن يكون مبايناً لكل شيء متعالياً عن كل شيء ؟ قيل لهم : الحق الذي تطلب معرفته من الأشياء هو أربعة أوجه ، فاولها أن ينظر أوجود هو أم ليس بوجود ، والثاني أن يعرف ما هو في ذاته وجوهره ؟ والثالث أن يعرف كيف هو وما صفته ؟ والرابع أن يعلم لما ذا هو ولأي علة ؟ فليس من هذه الوجوه شيء يمكن للمخلوق أن يعرفه من الخالق حق معرفته ، غير أنه موجود فقط . . فاذا قلنا : وكيف وما هو ؟ فممتنع علم كنهه ، وكال المعرفة به . واما لماذا هو ؟ فساقط في صفة الخالق ، لأنه جل ثناؤه علة كل شيء ، وليس شيء بعلة له ، ثم ليس علم الانسان بأنه موجود ، يوجب له أن يعلم : ما هو وكيف هو ؟ كما ان علمه بوجود النفس لا يوجب أن يعلم : ما هي وكيف هي ؟ وكذلك الأمور الروحانية اللطيفة . . فان قالوا : فانتم الآن تصفون من قصور العلم عنه وصفاً ، حتى كانه غير معلوم ؟ قيل لهم : هو كذلك من جهة اذا رام العقل معرفة كنهه والاحاطة به ، وهو من جهة أخرى أقرب من كل قريب اذا استدل عليه بالدلائل الشافية . . فهو من جهة كالأوضح لا يخفى على أحد وهو من جهة كالغامض لا يدركه أحد ، وكذلك العقل أيضاً ظاهر بشواهد ومستور بذاته .

﴿ أصحاب الطبائع ومناقشة أقوالهم ﴾

فاما (أصحاب الطبائع) فقالوا : ان الطبيعة لا تفعل شيئاً لغير معنى ولا عما فيه تمام الشيء في طبيعته ، وزعموا ان الحكمة تشهد بذلك ، فقول

لهم : فمن أعطى الطبيعة هذه الحكمة ، والوقوف على حدود الأشياء بلا مجاوزة لها ، وهذا قد تعجز عنه العقول بعد طول التجارب ؟ فان أوجبوا للطبيعة الحكمة والقدرة على مثل هذه الأفعال ، فقد أقروا بما أنكروا ، لأن هذه هي صفات الخالق . وان انكروا أن يكون هذا للطبيعة ، فهذا وجه الخلق يهتف بان الفعل للخالق الحكيم ، وقد كان من القدماء طائفة أنكروا العمد والتدبير في الأشياء ، وزعموا ان كونها بالعرض والاتفاق وكان مما احتجوا به هذه الآيات التي تكون على غير مجرى العرف والعادة كإنسان يولد ناقصاً او زائداً أصبغاً ، او يكون المولود مشوهاً مبدل الخلق فجعلوا هذا دليلاً على أن كون الأشياء ليس بعمد وتقدير بل بالعرض كيف ما اتفق أن يكون ؟ . . وقد كان (ارسطاطاليس) (١) رد عليهم فقال ان الذي يكون بالعرض والاتفاق انما هو شيء يأتي في الفرط مرة لاعراض تعرض للطبيعة ، فتزيلها عن سبيلها ، وليس بمنزلة الامور الطبيعية الجارية

(١) ارسطاطاليس لفظة يونانية معناها محب الحكمة ويقال ارسطو وهو احدى الشخصيات العالمية التي اشتهرت منذ قرون بعيدة ، كان تلميذاً لأفلاطون بعد ان خلفه على دار التعليم عند غيبته الى صقلية نظر في الفلسفة بعد ان أتى عليه من العمر (٣٠) عاماً . كان بليغ اليونانيين واجل علمائهم ، كما كان من ذوي الأفكار العالية في الفلسفة ، ويعرف بالمعلم الاول لأنه أول من جمع علم المنطق ورتبه واخترع فيه ، وقد عظم محله عند الملوك حتى ان الاسكندر الاكبر كان يمضي الامور عن رأيه ، عاش سبعة وستين سنة ، بعد ان توفي في خلكيس عام ٣٢٢ قبل الميلاد ، وله كتب كثيرة في مختلف فروع العلم .

على شكل واحد جرياً دائماً متتابعاً .

وأنت يا مفضل ترى أصناف الحيوان ان يجرى أكثر ذلك على مثال ومنهاج واحد ، كالا نسان يولد وله يدان ورجلان وخمس أصابع ، كما عليه الجمهور من الناس ، فاما ما يولد على خلاف ذلك ، فانه لعله تكون في الرحم ، أو في المادة التي ينشأ منها الجنين ، كما يعرض في الصناعات ، حين يعتمد الصانع الصواب في صنعته ، فيعوق دون ذلك عائق في الأداة ، أو في الآلة التي يعمل فيها الشيء ، فقد يحدث مثل ذلك في أولاد الحيوان للأسباب التي وصفنا ، فيأتي الولد زائداً أو ناقصاً أو مشوهاً ، ويسلم أكثرها فيأتي سويلاً لا علة فيه ، فكما ان الذي يحدث في بعض أعمال الاعراض لعله فيه لا يوجب عليها جميعاً الاهمال وعدم الصانع ، كذلك ما يحدث على بعض الأفعال الطبيعية لعائق يدخل عليها ، لا يوجب ان يكون جميعها بالعرض والاتفاق ، فقول من قال في الأشياء ان كونها بالعرض والاتفاق من قبيل ان شيئاً منها يأتي على خلاف الطبيعة بعرض يعرض له خطأ وخطأ . . فان قالوا : ولم صار مثل هذا يحدث في الأشياء ؟ قيل لهم ليعلم انه ليس كون الأشياء باضطراب من الطبيعة ، ولا يمكن أن يكون سواء - كما قال القائلون - بل هو تقدير وعمد من خالق حكيم ، اذ جعل الطبيعة تجري أكثر ذلك على مجرى ومنهاج معروف ، وتزول أحياناً عن ذلك ، لاعراض تعرض لها ، فيستدل بذلك على انها مصرفة مدبرة فقيرة الى ابداء الخالق وقدرته في بلوغ غايتها ، وأتمام عملها ، تبارك الله أحسن الخالقين .

يا مفضل خذ ما آتيتك ، واحفظ ما منحتك ، وكن لربك من الشاكرين ، ولآلائه من الحامدين ، ولأوليائه من المطيعين ، فقد شرحت لك من الأدلة على الخلق ، والشواهد على صواب التدبير والعمد ، قليلا من كثير ، وجزءاً من كل ، فتدبره وفكر فيه واعتبر به . فقلت بمعونتك يا مولاي أقر على ذلك ، وابلغه انشاء الله . فوضع يده على صدري فقال احفظ بمشيئة الله ، ولا تنس انشاء الله ، فخررت مغشياً علي ، فلما أفقت قال : كيف ترى نفسك يا مفضل ؟ فقلت : قد استغنيت بمعونة مولاي وتأيدته عن الكتاب الذي كتبته وصار ذلك بين يدي كأنما أقرأه من كفى ، فلهولاي الحمد والشكر كما هو أهله ومستحقه .

فقال : يا مفضل فرغ قلبك ، واجمع اليك ذهنك وعقلك وطما نيتك فسألني اليك من علم ملكوت السماوات والارض ، وما خلق الله بينهما وفيهما من عجائب خلقه ، واصناف الملائكة وصفوفهم ومقاماتهم ومراتبهم إلى سدرة المنتهى ، وسائر الخلق من الجن والانس ، إلى الارض السابعة السفلى وما تحت الثرى ، حتى يكون ما وعيته جزءاً من اجزاء . انصرف اذا شئت مصاحباً مكلوهاً ، فانت منا بالمكان الرفيع ، وموضعك من قلوب المؤمنين موضع الماء من الصدى ولا تسألن عما وعدتك حتى احدث لك منه ذكراً .

قال المفضل : فانصرفت من عند مولاي

بما لم ينصرف أحد بمثله

فهرست محتويات الكتاب

(المقدمة)

ص	
٣	المفضل بن عمر : سيرته وتوحيده .
٠	توطئة .
٤	حياة المفضل .
٥	كتب المفضل .
٨	الأخبار المروية في حقه .
١١	تضميد جروحه .
١٧	إتصال العرب بالثقافة اليونانية .
٢٥	كتاب توحيد المفضل .
٢٧	مقارنة بين توحيد المفضل واسلوب الجاحظ .
٢٩	مقارنة اخرى بين توحيد المفضل وأخبار الصادق .
٣٠	الاسماعيلية وكتاب التوحيد .

كتاب توحيد المفضل

٣٣	المقدمة .
٣٤	كلام ابن ابي العوجاء مع صاحبه .

٣٦ محاورة المفضل مع ابن ابي العوجاء .

٣٧ سبب إملاء السكتاب على المفضل .

المجلس الاول

٣٩ جهل الشكاك باسباب الخلقة ومعانيها .

٤٢ خلق الانسان وتدير الجنين في الرحم .

٤٣ كيفية ولادة الجنين وغذائه وطلوع اسنانه وبلوغه .

٤٤ حال من لا ينبت في وجهه الشعر وعلة ذلك .

٤٥ حال المولود لو ولد فها عاقلا وتعليل ذلك .

٤٧ منفعة الأطفال في البكاء .

٤٩ آلات الجماع وهيئتها .

« أعضاء البدن وفوائدها كل منها .

« زعم الطبيعيين وجوابه .

٥٠ عملية المضم وتكون الدم وجريانه في الشرايين والأوردة .

٥٢ أول نشوء الأبدان : تصوير الجنين في الرحم .

« اختصاص الانسان بالانتصاب والجلوس دون البهائم .

« تخصص الانسان بالحواس وتشرها دون غيره .

٥٣ الحواس الخمس وأعمالها وما في ذلك من الاسرار .

« تقدير الحواس بعضها يلقي بعضها .

- ٥٤ فيمن عدم البصر والسمع والعقل وما في ذلك من الموعظة .
- ٥٥ الأعضاء المخلوقة أفراداً وأزواجاً وكيفية ذلك .
- ٥٦ الصوت والكلام وتهئية آلاته في الانسان وعمل كل منها .
- ٥٧ ما في الأعضاء من المآرب الأخرى .
- ٥٨ الدماغ وأغشيته والجمجمة وفائدتها .
- « الجفن وأشفاره .
- ٥٩ الفؤاد ومدرعه .
- « الحلق والمري .
- « الرئة وعملها . اشراج منافذ البول والغائط .
- ٦٠ المعدة عصبانية والسكبد .
- « المخ والدم والاذن والاذن ولحم الأليتين والفخذين .
- ٦١ الانسان ذكر واثى وتناسله وآلات العمل وحاجته وحيلته والزامه بالحجة .
- ٦١ الفؤاد وثقبه المتصلة بالرئة .
- ٦٢ فرج الرجل والحسكة فيه .
- ٦٣ منفذ الغائط ووصفه .
- ٦٣ الطواحن من أسنان الانسان .
- « الشعر والأظفار وقائدة قصها .
- ٦٥ شعر الركب والابطين .

- ٦٦ الريق ومنفعته ٦٦ محاذير كون بطن الانسان كهيئة القباء .
- ٦٧ أفعال الانسان في الطعم والنوم والجماع وشرح ذلك .
- ٧٠ قوى النفس وموقعها من الانسان .
- ٧١ النعمة على الانسان في الحفظ والنسيان .
- ٧١ إختصاص الانسان بالحياء دون بقية الحيوانات .
- ٧٢ إختصاص الانسان بالمتنطق والكتابة .
- ٧٣ إعطاء الانسان ما يصلح دينه ودينه ومنعه مما سوى ذلك .
- ٧٤ ما ستر عن الانسان علمه من مدة حياته .
- ٧٧ الاحلام وامتزاج صادقها بكاذبها وسر ذلك .
- « الأشياء المخلوقة لما رب الانسان وايضاح ذلك .
- ٧٩ الخبز والماء رأس معاش الانسان وحياته .
- « إختلاف صور الناس وتشابه الوحوش والطير وغيرها
- والحكمة في ذلك ٨١ نمو أبدان الحيوان وتوقفها وسبب ذلك
- ٨١ ما يعترى اجسام الانس من ثقل الحركة والمشى لو لم يصبها الم
- ٨٢ انقراض الحيوان لو لم يلد ذكوراً وإناثاً .
- « ظهور شعر العانة عند البلوغ ونبات اللحية للرجل دون المرأة

المجلس الثاني

- ٨٥ أبنية أبدان الحيوان وتهيئتها وايضاح ذلك .
- ٨٦ أجساد الانعام وما اعطيت وما منعت وسبب ذلك .

- ٨٧ خلق الأصناف الثلاثة من الحيوان ،
- « آلات اللحم من الحيوان والتدبير في خلقها .
- ٨٨ ذوات الأربع واستقلال أولادها .
- ٨٩ قوائم الحيوان وكيفية حركتها .
- ٩٠ إنقياد الحيوانات المسخرة للانسان وسببه .
- ٩١ إفتقاد السباع للعقل والروية وفائدة ذلك .
- « عطف الكلب على الانسان ومحاماته عنه .
- ٩٢ وجه الدابة وفمها وذنبها وشرح ذلك .
- ٩٣ الغيل ومشفره . ٩٤ حياء الانثى من الفيلة .
- ٩٤ الزرافة وخافتها وكونها ليست من لقاح أصناف شتى .
- ٩٦ القرد وخلقته والفرق بينه وبين الانسان .
- « إكساء أجسام الحيوانات وخلقة أقدامها بعكس الانسان
- ٩٧ موارد البهائم عند احساسها بالموت .
- ٩٩ الفطن التي جعلت في البهائم : الأيل والثعلب والدلفين .
- ١٠٠ التين والسحاب .
- ١٠١ في الذرة والنمل وأسد الدباب والعنكبوت وطبائع كل منها .
- ١٠٣ جسم الطائر ١٠٤ الدجاجة وتهيجها لحضن البيض والتفريخ
- ١٠٥ خلق البيضة والتدبير في ذلك « حوصلة الطائر .
- ١٠٦ إختلاف ألوان الطير وعلة ذلك . ١٠٦ ريش الطائر ووصفه .

- ١٠٧ الطائر الطويل الساقين والتدبير في ذلك .
- ١٠٨ العصافير وطلبها للأكل .
- ١٠٨ معاش البوم والهام والخفاش
- ١٠٩ خلقة الخفاش .
- ١١٠ حيلة الطائر ابو نمرة بالحسكة ومنفعتها .
- ١١١ النحل : غسله وبيوته .
- ١١١ الجراد وبلاؤه .
- ١١٢ كثرة الجراد .
- ١١٢ وصف السمك .
- ١١٣ كثرة نسل السمك وعلة ذلك .
- ١١٣ سعة حكمة الخالق وقصر علم المخلوقين .
- المجلس الثالث**
- ١١٥ لون السماء وما فيه من صواب التدبير .
- ١١٦ طلوع الشمس وغروبها والمنافع في ذلك .
- ١١٧ التدبير والمصلحة في الفصول الاربعة من السنة .
- ١١٨ معرفة الأزمنة والفصول الأربعة عن طريق حركة الشمس .
- ١١٩ الاستدلال بالقمر في معرفة الشهور .
- ١١٩ ضوء القمر وما فيه من المنافع .
- ١٢٠ النجوم واختلاف مسيرها والسبب في ان بعضها راتبة

- والأخرى متنقلة . ١٢٢ فوائد بعض النجوم .
- ١٢٤ الشمس والقمر والنجوم والبروج تدل على الخالق .
- ١٢٥ مقادير الليل والنهار . ١٢٦ الحر والبرد وفوائدهما .
- ١٢٧ الريح وما فيها . ١٢٨ الهواء والأصوات .
- ١٢٩ هيئة الأرض .
- ١٣١ فوائد الماء والسبب في كثرته
- ١٣٣ فوائد الهواء والسبب في كثرته .
- ١٣٣ منافع النار وجعلها كالحزونة في الأجسام .
- ١٣٥ الصحو والمطر وتعاقبهما على العالم وفوائد ذلك .
- ١٣٦ مصالح نزول المطر على الأرض وأثر التدبير فيه .
- ١٣٧ منافع الجبال . ١٣٨ أنواع المعادن واستفادة الإنسان منها
- ١٤٠ النبات وما فيه من ضروب الميآرب .
- ١٤١ الربيع في النبات وسببه .
- ١٤٢ بعض النباتات وكيف تصان .
- ١٤٣ الحكمة في خلق الشجر وأصناف النبات . خلق الورق ووصفه
- ١٤٤ العجم والنوى والعلّة في خلقه .
- ١٤٥ موت الشجر وتجدد حياته وما في ذلك من ضروب التدبير
- ١٤٦ خلق الزمان وأثر العمد فيه .
- ١٤٦ حمل اليقطين وما فيه من التدبير والحكمة .

- ١٤٧ موافاة أصناف النبات في الوقت المشا كل لها .
 ١٤٧ في النخل وخلقة الجذع والخشب وفوائد ذلك .
 ١٤٩ العقاقير واختصاص كل منها .

المجلس الرابع

- ١٥٢ الموت والفناء وانتقاد الجهال وجواب ذلك .
 ١٥٣ الآفات ونظر الجهال اليها والجواب على ذلك .
 ١٥٦ لما ذا تصيب الآفات جميع الناس وما الحجة في ذلك .
 ١٥٧ الموت والفناء وانتقاد الجهال وجواب ذلك .
 ١٥٨ الطعن على التدبير من جهة اخرى والجواب عليه .
 ١٦١ اسم هذا العالم بلسان اليونانية .
 ١٦٢ عمر ماني عن دلائل الحكمة وادعاؤه علم الاسرار .
 «« انتقاد المعطلة فيما راموا ان يدركوا بالحس مالا يدرك بالعقل
 «« معرفة العقل للخالق معرفة إقرار لا معرفة احاطة .
 ١٦٣ الشمس واختلاف الفلاسفة في وصفها وشكلها ومقدارها .
 ١٦٥ الحق الذي تطلب معرفته من الاشياء اربعة اوجه وتفصيل
 ذلك .
 «« أصحاب الطبائع ومناقشة أقوالهم .